رواية

ماذا حدث في تلك الليلة؟

الكاتبة

هبة جمال أسعد

الإهداء

على أمل أن يبق لي ذكرى في هذا العالم

.إلى أملي المتبقي

لسنا قابلين للعبور إما ديمومة الوجود أو ديمومة الألم، يوماً ما في حياة أخرى ليست كحياتي هذه، سأكون أنا، سأشبهني كما لم أفعل من قبل.

.استهلكتني أحلامي، بدأت أمنياتي تعلق المشنقة لما أطمح إليه

.....لكن

لماذا؟

.!لماذا ولدنا في الجانب المظلم، لماذا لا يرانا أحد

.!هل علينا أن ننظر دوماً نحو السماء بحسرة

.أن نشاهد أحلامنا تطير بين الدول، يتبادلها الناس و ليس لها في مدينتنا محطة

.تعبنا من حياكة أنفسنا كي نتميز و عندما انتهينا أبى الواقع أن يرتدينا

.كنت أظن أن الإنسان هو من يصنع الواقع، لكني بدأت أوقن أن الواقع هو من يصنعنا

في حال لا أحسد عليها، أكره كل أجزائي، كل ما في داخلي متآمرٌ على روحي، متعبة، متعبة حد اليأس

أشعرُ بأن كريات الدم تتشاجرُ في جسدي، مقسمة، مُشتتة، مائلةٌ للموت، كنتُ أحبُ الحياة، يبدو أنه .حب من طرفٍ واحد

ستتجاوزون كلماتي لأنها كلمات لا يشعرُ بها إلا كاتبها، يؤسفني أني غدوت مملة، يؤسفني أنني .أذبُل في ربيعي

هل تسمعون!!! إنكم تقتلوني، أموت من الداخل، سجينةُ نفسي، سجينة من حولي، سجينة ديني و .عاداتي و مجتمعي، أنا بائسة

.سأبوح للورق..... استعدوا الآن لنذهب لرحلة ممتعة إلى كوكب الحكايات

(برعاية قناة سبيستون)

10/12/2016 (سوريا)

علِقت بجدرانِ شراييني

كلماتُكِ التي

ظننتُها من أحرف

و الأحرفُ تُنسى و تُمحى و تتبدل

لكنها بمتانتها كاللاصق

خليةٌ سرطانية

تمدُ جذورها في جسدي

تعيشُ على قتلي.....(من زين).

ماذا كُنت أريد!!! أين كُنتُ أذهبُ بنفسي، ها أنا أعيش، ظننتُ أن البُعد يقتل، أجدُ أني أحيا أفضل من أي وقت مضى، أستمتعُ بكل لحظة كأني ولدتُ من جديد، كانت الأفكار تلهو في عقل ميرا بينما تجلسُ في أحد المقاهي بمنطقة دمشق القديمة برفقة صديقها الياس و معه صديقيه كرم و سالي، كان صوت الأمطار و هي تعانق الأرض ينعشُ الروح بينما يشربون الشاي الساخن.

في غمرة من المزاح و الضحكات، التفت الياس إلى ميرا (قلتُ لكِ إنهُ لا يليقُ بكِ منذُ البداية، الآن بدأتِ تسيرين في الطريق الصحيح).

شعرت ميرا بغصة صعدت من صدرها إلى حنجرتها و كأن أحدهم وخز إبرة في جُرحها العميق و غيرت مجرى الحديث بالكامل.

كان زين يمشي في أحد شوارع دمشق القديمة و هو متجهٌ إلى المطعم الموجودة فيه ميرا، كان يبدو وجهه متعباً و شعرهُ مبعثر ، حاول أن يجعل خطواته ثابتة و يخفي الضعف الذي يستوطنُ قلبه و عينيه.

دخلَ إلى المطعم وجن جنونهُ عندما رأى ميرا تضحكُ مع الياس و كأنهُ لم يكن الجدار الذي بنت عليه مستقبلها، كان غيوراً عليها كما يغار الخريف على الشجرة من أوراقها.

أمسكها من ذراعها بقوة فنسي كل من في المكان أشغالهم و التفتوا إلى ما سيحدُث في حين حاول كل من لياس و كرم التدخل لكنها منعتهما، أخرجها معه خارج المطعم (ما الذي تفعلينه مع هؤلاء الشبان الحثالة، ألا تعلمين أني أغار، كُفي عن هذا ميرا، ما الذي تحاولين فعلهُ، علام تعاقبينني!! بماذا أخطأت).

-اقتنعتُ أن الأمل في استمرارية علاقتنا مفقود، التفتُ لحياتي بعيداً عن رجل مختل مثلك، التفت لحياتك أيضاً، إياك أن تكرر ما فعلته الآن مرة أخرى، إياك أن تقلل من شأني مجدداً.

-أحبكِ أيتها المجنونة، أقسم أني أحترق.

-إني أرى الحياة من نافذة أخرى أكتشفُ كل شيء من منظور جديد بعيداً عن غيرتك المزعجة، إن كنت حقاً تحترق أطفئ نفسك بدلاً من أن تحرقني معك.

تركتهُ واقفٌ في مكانه مصدوم من قسوة كلماتها و دخلت و هي تشتعلُ غضباً.

عاد إلى شقته المتواضعة و هو يلعن نفسه، لم يكن عليه أن يريها فائض الحب الذي يكنهُ لها في قلبه، جلس على سريره و هو يلكمُ بيده وجهه.

****

كانت وحيدة، غدا كُلُ شيء يخيفها، غدا كلُّ شيء غريباً و مرعباً، كطفلٍ صغير في طريق وعر كثرَ تعثره و حاول دوماً نهض نفسهُ بنفسه، فقدت والديها و أقامت في منزل عمها مع زوجته القاسية و بناتها الثلاث، كانت فتاة بالغة الجمال و الأنوثة في السادسة عشر من عمرها، تتكورُ على نفسها على الأرض في غرفة صغيرة جداً، كان عمها قد خصصها مُسبقاً للأشياء التالفة و حين جاءت لتقيم معهم قامت زوجته بإفراغها لها رافضة أن تجعلها تقيمُ مع بناتها.

فُتِحَ الباب و على صُراخُ زوجة عمها(أين ذهبتِ بالمال الذي في جيب معطفي أيتها السارقة).

نهضت حلا و قلبها مُرتعش(لم آخذ شيء، لم أغادر غرفتي، أنا هُنا منذ ساعات).

انهالت عليها بالضرب و هي تتهمها بالسرقة و تهددها بتسليمها للشرطة.

و لما جاء عمُها، استقبلته زوجه بالشجار و هي تهدده بترك المنزل هي و بناتها إن بقيت حلا تقيم معهم، لم يكن بيده حيلة فقد كانت امرأةً ظالمة و جبارة، في هذه المرة كان لديهِ الحل الذي سيعيد الاستقرار لمنزله، طمئنها قائلاً: ستذهب حلا للعمل في قصر مدير الشركة، إنه يحتاج إلى خادمة و أخبرته عن حلا.

****

كانت لحظاتٌ لا تُنسى، أشبه بلوحة فنية تنسجُها خيوط الحُب و الرغبة، كان كرم يداعبُ شعر سالي المستلقية بجواره على السرير، نظرت سالي إلى عينيه بحيرة(إلى متى سيبقى زواجُنا مخفي، مللتُ من الخوف و معاناة السرية).

شرد يفكر كيف سيقنعُ والديه بالزواج منها على الرغم من أنها فتاةٌ بسيطةٌ من حي عشوائي، أما هو من عائلة ثرية و لها اسمها المعروف في دمشق، لم ينهِ دراستهُ الجامعية بعد و هذا سيجعلُ الأمر أكثر صعوبة بسبب اعتماده عليهما.

كانت تترقبُ إجابة لتبرد نار الحيرة و تخرج من متاهة المستقبل المجهول، لكنهُ بقي صامتاً، نهضت من مكانها بخيبة (كعادتك لن تجيب، كنتُ أعلم بأنك لن تكون على هذا القدر من المسؤولية، كنتَ أعلمُ بأنك ستخذلني).

تبعها و أمسكها من زندها ثُمَّ لفها إليه (اهدأي، لا تتفوهي بكلمات كهذه، تعلمين كم أحبك).

- طالما لا تستطيعُ إشهار زواجنا، لا تطلب لقائي مجدداً.

قامت بالاستعداد للمغادرة و هي تذرفُ الدموع بينما بقي واقفاً في مكانه تتصارعُ أفكاره مع عواطفه، قبل خروجها أمسك يدها بلهفة (يوم الخميس، سآتي لخطبتك في نهاية هذا الشهر في يوم الخميس).

أخذَ يمسح بأطراف أصابعه دموعها(كُفي عن هذا)، عانقته بلوعة (أنا خائفة، خائفة جداً).

****

أغمضت عينيها عن ذكريات الماضي، و تجاهلت صوتهُ المذبوح، كان حديثُ ميرا يطولُ مع الياس على الموبايل في حين كان زين يحاولُ الاتصال بها، لم يكن ذنبهُ إلا أنه أحبها بصدق، قست الحياة عليه و قسى قلبُ ميرا معها.

انتصف الليل، طلب الياس منها أن تنزل من شقتها ليودعها قبل سفره لزيارة والديه في لبنان، تركت ميرا الموبايل في غرفتها و خرجت بهدوء من غرفتها دون أن يشعرَ عليها أحدٌ من عائلتها.

كان الياس ينتظرها في السيارة، جلست بجواره يتحدثان و قبل نزولها قام بطبع قبلة على خدها و أعطاها شنطة هدايا بداخلها مختلف أنواع البسكويت الذي تحبه.

اتجهت نحو باب البناء بينما هي مرتبكة لما فعلهُ، و فور دخولها لم تشعر إلا بأحدهم يمسكها من الخلف و يضعُ سكيناً بالقرب من عنقها، جمد الدم في عروقها ثم سمعت صوت زين (تعالي معي بصمت).

جعلها تصعد في سيارته تحد التهديد، اتجه بها رغما عنها إلى شقته، كاد بياض عينيه أن يصبح أحمراً لما رآه، لم تعد روحه تستطيع السيطرة على جسده بل ثارت معه، دفعها إلى الداخل و أخذ يصفعها و يشدُ شعرها دون أن تقوى على تخليص نفسها و هو يصرخ(لماذا؟!ا، لماذا؟، كيف تسمحين لهُ أن يقترب منك، كنت أخشى عليكي حتى من نفسي، لماذا؟، كيف استهنت بجسدك هكذا، كيف استطعت أن تكوني رخيصة لهذا الحد).

عاد لوعيه بعد أن رآها قد سقطت أرضاً مستسلمة له و هي تبكي بصوت مخنوق، اقترب منها بلهفة (ميرا، ميرا، انهضي أنا آسف، لم أستطع ضبط أعصابي، لماذا سمحتِ لهُ بالاقتراب منكِ، ألا تشفقين علي!، أنا موجوع، روحي تؤلمني، هذا النفس الذي يخرج من صدري يعذبني، يحرقني).

أخذ يبعدُ شعرها المتناثر من على وجهها و يطبعُ قبلات ناعمة على أماكن الصفعات بينما هو يضمها إلى صدره.

****

كان مراد جالساً خلف مكتبه في شركة الاستيراد و التصدير التي يديرها، كان شاباً في بداية الثلاثينيات وسيماً يرتدي دوماً ثياباً رسمية، فاحت رائحة القهوة عندما دخل أيمن و هو يحملُ القهوة لتقديمها لهُ، أخذ مراد الفنجان و هو يعملُ على اللابتوب دون أن يعير انتباه لأيمن الذي لا زال واقفاً في مكانه.

أيمن: سيد مراد.

مراد: اممم.

أيمن: أحضرتُ الفتاة التي أخبرتك عنها؟.

مراد: أيُ فتاة!!!!!.

ايمن: ابنة أخي رحمهُ الله ، حلا.

توقف مراد عن العمل و طلب من أيمن إدخالها، دخلت حلا و هي ترتعدُ خوفاً، طلب منها الجلوس و لما جلست أخذ يتأملُ الكدمات الحمراء التي كادت أن تغطي وجهها، نظرت نحوهُ بوجل، ليرى جمالاً ساحراً، عينين واسعتين برموش كثيفة و طويلة، و بشرة نقية كالأطفال، اقترب منها و جلس امامها ثم أمسك بوجهها بلطف و أخذ يتساءل عن سبب الكدمات التي عليه، لم تنطق بحرف، كان يبدو أنها تتنفسُ بسرعة من الارتباك، تحدث إليها مُهدئاً (لا تقلقي، سنكون أصدقاء، ستذهبين معي

إلى المنزل لتقدمين العون لي و تساعدين زوجتي في أعمال المنزل، سيكون لك غرفة خاصة بك و ستحصلين على كل ما ترغبين به، اتفقنا!!).

تذكرت كيف كانت الفتاة الوحيدة و المدللة لدى والديها، كانا يسعيان بكل قوتهما لتأمين كل متطلباتها و عدم حرمانها من أي شيء، تذكرت كلام والدتها عندما أخبرتها أحد جاراتها بأنها تفرطُ في دلالها(لا بأس، فالتدلل ما استطاعت، لا أحد يعلمُ ما تخفيه لها قسوة الحياة في المستقبل) .

غطت وجهها بكفيها و جهشت بالبكاء، لم يعد يعلم مراد ماذا عليه أن يفعل، صرخَ بغضب منادياً أيمن ، ثم وبخهُ قائلاً (من الذي قام بتعنيف الفتاة إلى هذه الدرجة!!، ما رأيك بأن أحضر الشرطة للتحقيق الآن؟؟؟!!!).

أجاب أيمن بقلق: لقد سرقت المال، أرادت زوجتي تهذيبها، لا داعي للشرطة أرجوك.

التفت مراد مجدداً إلى حلا التي رفعت رأسها و نظرات عينيها تكذبُ ما قالهُ عمها، لكنها بقيت صامتة.

****

لكل بدايةٍ وجهين، بداية البداية، و بداية النهاية، أولهما كالشهد، و الآخر كالحنظل.

كان والدي ميرا و شقيقها الأصغر ميار متأهبون في انتظار اتصال جديد بعد أن تلقوا مكالمة سابقة بشأن دفع مبلغ من المال كفدية لإعادتها إلى المنزل و تهديد بعدم إبلاغ الشرطة.

في الوقت الذي كانت فيه ميرا محتجزة في إحدى الغرف في الشقة التي يقيم فيها زين، دخل يحملُ الغذاء ليتناولاه معاً، نهضت ميرا من مكانها و قامت بدفعِ الطعام من يد زين لتسقطهُ أرضاً، اقترب منها زين غاضباً (لا تكوني شقية، أعلم بأنكِ تحبينني بنفس قدر حبي، الحبُ يدفعنا للجنون أحياناً و أنا مستعد لفعل أي شيء لأحصل عليكِ).

عادت و استلقت على السرير، فجلس بجوارها و أخذ يداعبُ شعرها بأصابعه (أتذكرين الوقت الذي كنت تسرقينه لتكونين معي، ها نحنُ الآن سوياً ما الذي تغير! ، أنا زين يا ميرا، هل علي أن أذكركِ بما كُنا عليه، توقعتُ أن تدافعي عن حُبنا بشكل أكبر لكنكِ استسلمتِ بينما بقيتُ أقاوم لوحدي، أشعر أن كل شيء متآمر ضدي، حتى أنتِ، يهونُ كل الأسى و أنتِ بقربي، لكن ماذا برأيك سيحدثُ لي إن ألقت علي الدنيا أثقالها و ابتعدتِ أنتِ، بل إن بعدك أقسى من أي شيء.)

أثرت كلماتها فيه لكنها بقيت ثابتة، كيف ستسامحهُ بهذه السهولة بعد أن ضربها في الليلة الماضية، ضبطت نفسها دون إبداء أي رد فعل و أغمضت عينيها لتنام.

****

دخلت سالي إلى المنزل حيث تقيمُ مع أخيها وزوجته، كانت أكره الأوقات في يومها تعيشها عند القدوم إلى المنزل، فزوجة شقيقها لا تكفُ عن تحريضه ضدها، بينما لا يكفُ هو عن الضغط عليها للموافقة على الزواج من صديقه مازن، استقبلتها سهى و هي توبخها (كعادتك في كل يوم يناوب فيه شقيقك، تطيلين الغياب).

كانت تسمعُ سالي كلماتها المُهينة و تصمت، كانت قد قررت أن تفتح مع سهى موضوعها مع كرم كي تتحدث سهى إلى زوجها في الأمر فهي لها تأثيرٌ كبير عليه، كانت تعلم أن سهى لا تتمنى لها الخير و الراحة في حياتها فهي شديدة الغيرة منها لكنها فكرت بأن إقناع سهى بأنها ستقدمُ لها المال بين الحين و الآخر إن ساعدتها خصوصاً لأن وضع كرم المادي ممتاز سيكون لهُ أثر إيجابي على رأي سهى.

طلبت سالي من سهى الجلوس ليتحدثا كشقيقتين و بدأت تحكي لها عن رغبة أحد زملاءها في الجامعة في التقدم لخطبتها.

كانت سهى تخفي غيظها و أخيراً وافقت على مساعدتها مقابل أن تعطيها مبدئياً أقراط الذهب التي في أذنها، فكَّت سالي الأقراط بسعادة و قامت بتقديمهم لها مقابل وعد منها بإقناع ياسر(شقيقها).

****

استقبلت نيللي زوجة مراد، زوجها و حلا بابتسامة و وجه بشوش يُخفي ما في داخلها، دخلَ مراد للاستحمام بينما بقيت حلا جالسةً مع نيللي، كانت نيللي تنظرُ إلى حلا من الأعلى للأسفل باشمئزاز (اسمعي أيتها هالفتاة، في الحقيقة لا رغبة لي في وجودك هُنا لولا شفقة مراد عليكِ، أنتِ هنا للعمل فقط ليس لكِ أي دخل بما يحدث، لا تملكين حق السؤال عن أي شيء مهما كان غريباً، تعاملكِ معي أنا و أنا من آمر هُنا، إن حدث و علمتُ بأنكِ تفوهتِ لمراد بحرف واحد مما يدورُ بيني و بينك سأجعلكِ تندمين، صدقيني، انهضي لتستحمي فرائحتك نتنة، سأعطيكِ ثياباً ترتديها فثيابكِ هذه لا تليقُ حتى بالخدم).

دخلت حلا إلى غرفة الاستحمام و فردت شعرها الذي كان ملفوفاً بشكل دائري كالحلوى ليصل إلى خصرها و بدأت تستحم و هي تشعرُ بالأمل بأن نيللي ربما ستحبها لاحقاً و تتعاملُ معها كشقيقتها الصغيرة.

كان القصر من الداخل باهر الجمال، يتكون من طابقين و كل طابق لهُ تصميم هندسي مختلف عن الآخر، كانت غرفة مراد و زوجته في الطابق العلوي بينما غرفة حلا في الطابق السفلي.

خرجت حلا من غرفة الاستحمام المرفقة مع غرفتها، جلست على السرير و هي تمشطُ شعرها متفائلة بغد أفضل، طُرِقَ الباب ففتحت لتجد مراد، للحظات نسي نفسه و هو ينظرُ إليها و إلى شعرها الطويل (ظننتُ أنكِ انتهيتِ، أنا متأسف).

-لا بأس.

كان يمسكُ في يده رزمة من المال(خذي هذا المبلغ و اذهبي غداً لتشتري الثياب و الأشياء التي تنقصك، ستباشرين بالعمل منذ الغد أما الآن استريحي).

بعد أن خرج مراد أخذت تعد المال بانشراح فهي لم تمسك بيدها مبلغاً كهذا منذ سنوات.

****

هُنا حيثُ خُلِقتُ من القاع و سأموت فيه

هُنا حيثُ يبتسمُ لي الغائبون و يضحكُ لي الموتى

هُنا حيثُ تومئين لي بالنهوض فأدفنُ رأسي في الوسادة أكثر

هُنا حيثُ طال الانتظار و شاب الأملُ على الشرفة

هُنا حيثُ تعانقنا يوماً و لامست أصواتُ أرواحنا السماء

هُنا حيثُ أنطفئ و لا يفتقدُ أحدٌ لضوئي.....

حلَّ الظلام ذهب زين وهو ملثم لأخذ حقيبة المال من أمام المنزل المهجور الذي طلب من والد ميرا أن يضعها عنده بعد أن تأكد من مغاددرة والدها قد للمكان.

أمسك بالحقيبة بحذر وهو ينظرُ حولهُ ثُمَّ غادر بسرعة، عاد والدها إلى المنزل و جميع العائلة تنتظرُ عودتها بقلق، في حين دخل زين إلى الغرفة التي يحتجزُ فيها ميرا كالمنتصر، جلس بجوارها و هي تنظرُ إلى الحقيبة بفضول (هذا المال من والدكِ أخذتهُ كفدية، أعدكِ بأني سأعيده لهُ، يريدُني أن أمتلك منزلاً و سيارة حتى يوافق على تزويجي منكِ، و شعرتُ بأني أخسركِ مع الوقت لذا وجب علي أن أتعجل الأمر).

نهضت من مكانها بغضب (تسرقُ والدي كي تتزوجني!!!، من المؤكد إنك مجنون، حين أخبرنني جميع صديقاتي بأنك غير سوي لم أصدق، الآن اصدق كل شيء، أخرج من حياتي أريدُ أن أحيا بعيداً عن عقدك النفسية، وجدتُ الحياة من دونك أفضل، لدي فضول حول الكثير من الأمور التي لم أجربها بسبب عقلك المتحجر).

- بعد كل سنوات الحب تريدين أن نفترق!! ، و بعد أن ينته الفضول الذي تتحدثين عنه ماذا سيحدث!!!، هل ستعودين بعد أن تصلي إلى قناعة بأنه لن يحبك أحدٌ أكثر مني.
-
- لا شأن لك بما سيحدث، اترك لي حياتي لأعيش كما أحب، أذهبُ إلى المكان الذي أرغب و برفقة الشخص الذي أريد، أرتدي ما أشاء، مللت من قيودك.

- كانت كلُّ المشكلة أن والدكِ رفضني لعدة مرات، ما الذي جعلك تثورين هكذا!!! من الذي غيرك؟، اعترفُ بأنك فتاة شجاعة تستطيعين سحق كل شيء و المضي قدماً، و أن كل المشاعر التي قدمتها و الوفاء طوال كل الوقت كان غباءً مني، أهدرتُ روحي مع فتاة لا تستحق، اذهبي ميرا، سأنسى، لكن بعد أن ينتهي فضولكِ لا تعودي، لن تجدي أحداً.

اقترب منها فتراجعت بخوف ظناً بأنهُ سيضربها، لكنهُ أمسكها من يدها بلطف و عانقها بحميمية هامساً في أذنها (وداعاً).
غادرت منزله و هي تكادُ أن تسمع دقات قلبها في أذنيها، وقفت خلف باب الشقة من الخارج بعد أن أغلقتهُ خلفها و تساقط دمع الفراق من عينيها، ثُمَّ التفتت نحو الباب لتطرقهُ مجدداً، لكنها تراجعت مقررة أن تخط حياتها بشكل جديد.
كان زين يدمرُ كل شيء حوله و يلقي بالأشياء من حوله أرضاً، أمسك صورة ميرا الكبيرة التي كان يعلقها بالقرب من سريره و أخذ يلكمها حتى انكسر زجاجها بيده وسالت الدماء.

****

حلَّ الصباح، نهض مراد بينما بقيت نيللي نائمة، خرج من الغرفة ليجد المنزل نظيفاً و رائحة المعطر تفوح في الأرجاء، هي المرة الأولى منذُ شهرين، منذُ تزوج نيللي.
نزل من على الدرج ليجد الإفطار جاهزاً، ابتسمت لهُ حلا و هي تحملُ إبريق الشاي(الإفطار جاهز).
-شكراً لك، معتادٌ أن أفطر في العمل، لكن هذا المائدة بالتأكيد أفضل، اجلسي لنأكل سوياً.
- سآكل عندما أنهي جميع الأعمال، هل أوقظ السيدة نيللي؟.
-هيَ لا تستيقظُ الآن اجلسي معي، هيّا، لا داعي للخجل.

جلست معهُ كان يحدثها ليتعرف عليها بشكل أفضل بدت لهُ أفضل من الحال التي كانت فيها البارحة، كان يأكل بسعادة، مسروراً لأنه يعتني بفتاة يتيمة و في نفس الوقت أضاف وجودها فائدة لحال منزله.
بعد أن غادر استيقظت نيللي، فقامت حلا بتنظيف غرفة النوم و تحضير الإفطار لها ثم عادت إلى غرفتها بأمرٍ منها، استلقت حلا على سريرها للراحة فشعرت بأن نيللي قد أقفلت الباب عليها من الخارج، اقتربت من الباب و سمعت صوت نيللي تتحدثُ إلى أحدهم دون أن تفهم الحديث.
****

كان الجميع مجتمعون لتناول الإفطار حين رن جرسُ الباب، توجه ميار لفتح الباب فوجد حقيبة المال موضوعةً أمامه، أدخلها و قام الأب بفتحها و بدت الدهشة على وجهه (إن المبلغ يبدو كاملاً، لقد أعاده الخاطف كما هو، ما العبرة من هذا!) ، كانت ميرا تعلم تماماً بأن لا قيمة للمال بالنسبة لزين، و أن الشيء الوحيد الثمين بالنسبة لهُ هو هيَ، لكنها كانت تكابر.

دخل زين إلى مكتب مدير العمل لديه ليعلمهُ بأنه قد تم طرده من الشركة بسبب غيابه المستمر و غير المبرر، طلب منه أن يضع مفاتيح السيارة التي سلموها له، و خرج من البناء مهزوماً بعد أن خسر كل شيء في طريقه للحفاظ على علاقته بالفتاة التي يحبها، كل الخسارات كانت عادية بالنسبة له مقارنة بخسارته لميرا.

بعد هذا الشهر لن يعود قادراً على دفع الأجرة الشهرية للمنزل الذي يقيم فيه، قرر وضع حد لما يعانيه و الهروب من الخراب الذي يقبع في منتصفه، بدأ يعدُ أوراقهُ للالتحاق بالجيش ، قرر أن يتَرك كل ما خلفه للنسيان، كان كل ما حوله يذكرهُ بها، الطرقات، الحدائق، المطاعم، العشاق الذين يختلسون من زحمة العمر لقاء، قرر أن يضع حداً لهذه المعاناة و يرحل بعيداً عن كل شيء.

****

كانت سالي تعدُ الأيام حتى يأتي الخميسُ المنتظر، دخلت إلى المنزل الذي اعتادا أن يلتقيا فيه و توجهت مبتهجة نحو كرم الذي كان ينتظرها (أخي ينتظرك في يوم الخمس الموافق لنهاية هذا الشهر، أخبرتُ سُهى و قامت بإخباره، قلبي لا يحتمل، لا أصدقُ هذا).

علقت الكلام في حنجرة كرم، لم يجرؤ على إخبارها بأنه قد فتح الموضوع مع والديه قبل حتى أن يعطيها هذا الموعد و أنه كان يلقى منهما الصد دوماً، كان ينظرُ إلى لمعة عينيها و الأمل الذي يشعُ به جسدها، شعر بكبر المسؤولية الملقاة على عاتقه، ماذا لو لم يتمكن من إقناع والديه!! ، كيف سيؤول الحال به و بها، نظرت إلى عينيه الشاردتين (هل هناك مشكلة!!).

أشعل سيجارتهُ ليتجاهلُ النظر إليها، فقد كان لديها القدرة على استنتاج ما يدور في ذهنه من نظرات عينيه، كانت تقرأُ ما في داخله، لفها بذراعه و جعلها تسندُ رأسها على كتفه (لا تخافي سنبقى معاً للأبد).

****

كانت حلا غافية على السرير، فتحت عينيها على صوت فتح قفل باب غرفتها من الخارج، دخلت نيللي إليها و قد تأهبت للخروج(أنا ذاهبة، سأسافرُ إلى بيروت مع إنجي أخبري مراد بهذا).

نهضت بعد مغادرتها و توجهت للمطبخ لترى كؤوس المشروب و القهوة، كان يبدو أن أحدهم كان عند نيللي، أخذت تنظفُ الأطباق و هي تستذكرُ في عقلها طريقة إعداد البيتزا.
دخل مراد إلى المنزل شم رائحة شيء يحترق، فدخل مسرعاً إلى المطبخ ليجد حلا تمسك صينية البيتزا المحترقة، سقطت الصينية من يد حلا و تحدثت و هي مضطربة (آسفة لقد أحرقت الطعام)، كانت تنظرُ إليه بخوف و تتلعثمُ أثناء كلامها، ارتسمت الابتسامة على وجهه و اقترب منها و هو يضعُ يده على كتفها برفق(لا بأس، دخلت بسرعة خوفاً من نشوب حريق، سوف يأتي الطعام جاهزاً بعد قليل، لا تقلقي بشأن هذا).
انحنت لتنظيف الأرض، لاحظ ارتعاش يديها، انحنى و أمسك بيدها(لماذا ترتجفين؟؟، مهما فعلتِ أو أخطأتِ لن يكون العقاب أكثر من العتاب).
ابتسمت لهُ بود و هي تنظرُ إلي عينيه، كان يغوص فيهما كما لو أن قوة تدفعهُ للاستمرار في النظر، قاطعت نظرته بخجل، فانتبه إلى نفسه، ثم غادر متوجهاً إلى غرفة النوم في الطابق العلوي.
رنَّ الجرس ففتحت حلا الباب لتجد الصبي المسؤول عن توصيل الطلبات، أخذت منهُ الطلبية و أغلقت الباب في حين نزل مراد من على الدرج و هو يسأل عن نيللي، و لما أخبرتهُ حلا، بدا الانزعاج عليه، كان قد تزوجها باختيار والدته بعد إصرارها على تزويجه و لأنها مناسبة لمستواهم الاجتماعي، لكنه منذُ تزوجا لم يشعر بأنها تتصرفُ كزوجة، كانت تفعلُ كُل ما يحلو لها، لا تبدي لهُ اهتماماً عندما يغادر المنزل أو يعود إليه، كان يشعرُ بأن كل شيء كان بارداً ومملاً، كأنه يعيشُ وحيداً كما كان.
دخلَّ إلى المطبخ و أخذ يساعدُ حلا في تجهيز المائدة(قبل أن أتزوج كنتُ أفعلُ كل هذا لوحدي، ما رأيك أن نخرج في المساء، هل ستلبين دعوتي؟).
-أنا!!!.
مراد(يغمزها): أجل أنتِ، و هل يوجدُ شخصٌ آخر هُنا؟.

****

ارتدت ميرا فستاناً أحمراً فاقع اللون لفوق الركبة و حذاء أحمر ذو كعب عالٍ، هذا النمط من الثياب الذي كان يثيرُ جنون زين عندما ترتديه فكان يجبرها على العودة إلى المنزل و التبديل، طلبت من ميار أن يقوم بتصويرها و نشرت الصورة على الفيس بوك .
كان زين جالساً على شرفة شقته على الرغم من برودة الجو و كأنهُ يعاقبُ نفسه أو يُطفئ البراكين التي تثورُ في أعماقه، سمع رنين الموبايل فأمسكهُ ليرى إشعار بأن ميرا قد قامت بالنشر، رأى صورتها و أخذ يقربُ على ما يظهرُ من جسدها بخيبة ثم رمى الموبايل من يده بقوة و قام بسحقهِ بقدمه.
جلست ميرا في غرفتها تنتظرُ فيما إذا كان زين سيتصلُ ليوبخها كما يفعلُ في العادة، لكنهُ لم يكترث على الرغم من أنها قد رأت بأنه كان نشط بعد نشرها للصورة، فرحت بأنها تستطيع أن تفعل ما يحلو لها دون أن يقيد زين حريتها و من جهة أخرى حزنت لأنهُ لم يكترث لها فعلاً.

اتصلت بلياس الذي أخبرها بأنه لا يزال في لبنان، ثم حدثت جميع صديقاتها اللواتي كنَّ يشجعنها على ترك زين كي تتمتع بحياتها لكن جميعهنَّ اعتذرن عن الذهاب معها، خلعت الفستان بقوة و بدأت تزيلُ مكياجها بعنف.

****

بدأت الأمطار بالسقوط، نظرت حلا إلى القطرات التي تداعبُ نافذة غرفتها بينما تشربُ من كوب الشاي الساخن، كانت تحبُ المطر، تشعرُ بأنه مسحة الرحمن التي تزيل الحزن من أعماقها، توجهت إلى حديقة المنزل و مدت ذراعيها و أخذت تدورُ و هي تغمضُ عينيها و توجهُ وجهها إلى السماء و مع اشتداده تزيدُ في دورانها.

نهض مراد من نومه على صوت الرعد، نظرَّ عبر النافذة ليرى حلا تدور و قد بلل المطرُ شعرها و ثيابها.

لم تشعر حلا إلا بمراد أمسكها من ذراعها و أوقفها عن الدوران(ستمرضين!!، ما هذه الثياب التي ترتدينها وسط هذا البرد القارص، هيَّا إلى الداخل).

كانت تضحكُ من قلبها كما لم يرها من قبل(القليل من الوقت و سأدخل، أرجوك).

-ما الذي تشعرين بهِ و أنتِ تدورين بهذا الشكل.

-ما رأيك أن تجرب، الشعور رائع، أرجوك، جرب قليلاً فقط.

أخذت تطلبُ منه أن يقلدها بينما هو يتأملها، أخذا يدورا و هما يغمضان أعينهم حتى اصطدما ببعضهما بقوة فسقطت هي أرضاً، توجه نحوها بلفهة ليساعدها على النهوض (هل حدث لكِ مكروه).
جلست في مكانها و بدأت بالضحك فتلاشى القلق عن وجهه(هيّا إلى الداخل، كيف تستحملين هذا الجو بهذه الثياب).
-سأبقى قليلاً أرجوك، أحبُ المطر.
التفت حولهُ و هو يفكر ثم قام بحملها ليجبرها على الدخول و أنزلها داخل المنزل، نظرَّ إلى وجنتيها اللتان احمرتا من الخجل، و برر ما فعله (كان عليكِ أن تدخلي، هيَّا بدلي ثيابك قبل أن تمرضي).
بقي ينظرُ إليها حتى دخلت إلى غرفتها، جلس على الأريكة مستغرباً مما فعله كيف قام بالدوران و من ثم حملها إلى الداخل، شعر بأنها تسلبُ لهُ عقلهُ عندما يكونان سوياً، في الحين الذي كانت فيه نيللي ترقصُ برفقة الياس في أحد البارات في بيروت كان مراد يتوجهُ بمشاعره نحو حلا.

****

بدأت ميرا تخشى من أن يكون قد أصاب زين مكروه، لطالما أخبرها بأنه سيموت إن افترقا، حاولت الاتصال به لكن الرقم مغلق و أخيراً قررت الذهاب إلى شقته، طرقت الباب بقوة دون أن تفكر فيما ستقوله حين يفتحُ الباب، لكن جارته خرجت من الشقة المجاورة لتخبرها بأنها زين غادر منذ الصباح، و كان يحملُ أمتعتهُ.
وقفت لدقائق أمام باب الشقة مصدومة، مرت في بالها كل اللحظات الجميلة التي قضتها معه، تذكرت عيد ميلادها الماضي حين أحضرها إلى شقته بعد أن فرش لها الأرض من أوراق الورد الجوري، كان حينها قد جهز كل التحضيرات للاحتفال بها، أدركت بأن زين لن يتبعها هذه المرة كما اعتاد أن يفعل في السابق، أرادت أن تفعل شيء يجعلها تتجاهل التفكير فيه و بذكرياته، أمسكت هاتفها و قامت بالاتصال بالياس.
كان الياس يقود السيارة و يجواره نيللي عائدين إلى سوريا، انتبه إلى موبايله الصامت و هو يضيء فقام بإغلاقه دون أن يجيب عليها.
جلست على حافة الدرج أمام الشقة و بدأت بالبكاء .

****

كان مراد قد استيقظ من النوم لتوه، مرَّ من أمام غرفة حلا، لم يكن الباب مغلق و حين اقترب نحوها شاهد حلا واقفةٌ أمام المرآة تنظرُ لشيء ما في يدها و تبتسم، ما إن انتبهت لوجوده حتى ارتبكت و قامت بإخفاء مافي يدها في الدرج الذي أمامها.
مراد: صباحُ الخير.
حلا: صباح النور، سأحضرُ لك القهوة في الحال، لقد تأخرت لأن....
مراد(بود): لا تبرري.

توجهت نحو المطبخ و بدأت بإعداد القهوة، في حين دخل إلى غرفتها وفتح الدرج ليرى ماذا أخفت، فشاهد صورة شخصية لهُ، خرج من الغرفة بهدوء و تصرف كأنهُ لم يرَ شيء.
جلست تشربُ القهوة معه في حين دخلت نيللي إلى المنزل، نظرت نيللي إلى حلا بغضب(منذُ متى يشربُ الخدم القهوة مع أسيادهم، اذهبي و أعدي لي كأساً من النسكافيه).
غادرت حلا الصالة فنهض مراد من مكانه بغضب (منذُ متى تتصرفُ الزوجة بهذه اللا مبالاة، و تغيبُ لثلاثة أيام عن منزلها من دون حتى أن تستشير زوجها!!).
اقتربت منهُ و أخذت تداعبُ لحيته بأصابعها(حبيبي كان عيدُ ميلاد صديقتنا و كنت قد نسيت الأمر لولا أن إنجي قد جاءت و أخبرتني، لا تغضب أرجوك).
أبعد يدها عنهُ بقوة و غادر إلى عمله.

****

جلس الحب ينتظرُ في قاعة الذكرى بعد أن ثكلتهُ الوعود و الأمنيات، أيُها الطريق الطويل، تقلص فقد زاد صقيعُ الشوق.
كانت ميرا تحاول بكل قوتها أن تلتزم بقرارها في البعد، على الرغم من أن كل ما في داخلها يبحثُ عن زين في كل التفاصيل التي تحيطُ بها إلا جسدها بقي مكانه، دخلت أحد المقاهي و خلعت معطفها و جلست تنتظرُ قدوم الياس، كانت رائحة دخان الأركيلة تملأ المكان و الأغاني التي تلامس القلب، تحفزُ دموعها المحبوسة على نيل حريتها، في الطاولة المقابلة لها كان أحد الشبان ينظرُ إليها بطريقة غير مريحة، جلست في الاتجاه المعاكس لهُ مستاءة منه و من تأخر الياس، أخذها عقلها إلى حيث لم تشأ أن تذهب، حيثُ كان زين ينتظرها مهما تأخرت بكل رحابة صدر، اليوم هي من تنتظر و تنتظرُ رجل غريب، رجلٌ كان لهُ الدور الأكبر في الجفاء الذي طال مشاعرها و أفسد علاقتها بزين، قاطع شرودها قدوم الياس فنهضت لإلقاء التحية ليقوم بطبع قبلتين على خديها كما لم تعتد.

****

كان قلبُ حلا يزدادُ تعلقاً بمراد، أنهت تحضير الأرز بالدجاج وفق ما هو مكتوب في أحد كتب تعليم الطبخ، دخلت إلى غرفتها وقامت بتبديل ثيابها و تعطير نفسها، أخذت تنظرُ إلى صورته كأنها ترى روحها على هيئة شخص، جهزت المائدة بينما لا تزال نيللي نائمة من تعب السفر.
أصبح مراد يحبُ العودة إلى المنزل بعد قدوم حلا إليه، شعر بأن جمالها يضعُ لمستهُ على كل شيء ليبدو كل ما حولهُ أكثر حيوية و صفاء.

دخلت حلا لتقوم بإيقاظ نيللي التي صرخت في وجهها (لم أسمح لكِ بالدخول، أريد أن أنام، اخرجي أيتها الوضيعة).
خرجت حلا و قلبها يرتجف و مشت نحو الدرج لتتفاجئ بظهور مراد أمامها، كان قد سمع ما حدث، لم تنطق بكلمة أخفضت رأسها و تابعت طريقها إلى غرفتها، بينما اتجه نحو غرفة الملابس ليبدل ثيابه.
كانت حلا واقفةً بالقرب من النافذة تنظرُ إلى الأشجار التي تراقصها الرياح، تتمنى لو أنها ريحٌ تجوب الكون بأسرهِ، تعانقُ كل ما في طريقها، تداعبُ بنسماتها خصل شعر تلك الفتاة اليتيمة و تحضنُ ذاك العجوز الوحيد، كانت تتمنى أن تكون أي شيء حر لا يحتجزهُ جسد و لا تحكمهُ قيود صارمة.
طُرِقَ الباب و دخل مراد، وقف بجوارها (لا تحزني من نيللي، إنها فتاة طيبة لكنها تكون عصبية في بعض الأحيان).
كانت تخفي حزنها لكن عينيها باحتا به(لمَ سأحزن!!، أنا خادمة، هكذا يعاملُ الخدم، الأمر عادي، في لحظة ما سيقفُ الأسياد منتظرين رأفة الخدم، سيكونُ كل شيء معكوساً، سيحتاجُ الأغنياء للمشردين و يبحثُ الأبناء عن آباءهم و أمهاتهم العجائز، ستغلقُ دور الأيتام أبوابها و تسدلُ الستائر في دور العجائز، سيبحثُ الظالمون عن محطة رأفة أو كرت مساعدة ليطلبوا به الغفران لكن المحطات ستكون فارغة و الكروتُ قد فسدت مُدتها.
أمسكَ مراد وجهها بكفي يديه برفق و هو يغوص في عينيها الدامعتين(يكفي، اصمتي يا فتاة ، ما كلُّ هذا الحزن و السوداوية!!).
وضعت يديها فوق يديه لتبعدهما و هي تنظرُ إلى عينيه بخجل لكنهُ لم يشأ أن يبتعد، قربها منهُ و قبّلَها بلطف.

****

كان كرم يصفُ سيارتهُ بالقرب من المنزل حين ظهرت أمامهُ صفاء، تنهد بعمق ثم نزل من سيارته، أخذت تعاتبه لتجاهله لها، كانت فترة مؤقتة في حياته عرفها وهو يحبُ سالي و أقامت علاقة معهُ على الرغم من معرفتها بأن قلبه ملكٌ لفتاة أخرى، حديثاً، قرر أن يضع حداً لخيانته، خشي أن تعلم سالي بما فعل و يكسر هذا قلبها لذا صمم على إنهاء تلك العلاقة العابرة.
-تعلمين منذ البداية أن علاقتنا مؤقتة، كُنا نلهو.
-كيف بإمكانكَ أن تنسى الأوقات التي قضيناها معاً، قضينا لحظات لا تُنسى.
-سأختصرُ عليكِ المعاناة، سأرتبط بالفتاة التي أحبها بعلاقة رسمية و لا أريدُ لأحدٍ أن يفسد علاقتي بها مهما كان، أنا الآن أكثر جدية من أي وقتٍ مضى.
تركها واقفةً تكادُ أن تأكل نفسها من الغيظ و الغيرة و دخل إلى منزله حيثُ وجد والديه و شقيقتهُ الكبرى فرح جالسين في الصالة، ألقى تحيةً جافة و اتجه نحو غرفته مغلقاً خلفه الباب بقوة، نظرت والدتهُ إلى شقيقته باستياء: لن أخطبُ لهُ تلك الفتاة لو لم يبق غيرها في هذا العالم.
جلس كرم على سريره عاقد الحاجبين، يتحدثُ إلى نفسه، ما معنى اختلاف المستويات!!!، ألم يخلقنا الله في حالٍ واحدة، لمَ كل هذه التعقيدات، أحبُها و تحبني، الحب أساس لكل شيء، بماذا ستفيدني فتاة من عائلة ثرية!!!، هل ستشتري لي السعادة بأموال والديها، هَزُلت.

سمع رنين موبايله ليرَ رسالةً من سالي(اقترب الموعد، أنتظرُ الغد بفارغ الصبر و لا بُدَّ بأنه ينتظرني أيضاً).

****

الآن أظُنُ أننا نلتقي في ذات الذكرى

هُناك حيثُ التصقت بكِ بصمات أصابعي و رافقتكِ

هُناك حيثُ كان اللقاءُ الأخير

دغدغتني كلماتُ الرحيل حدَّ الألم

دغدغتني حدَّ البكاء

لكن عيناي لم تبكِ!!!!

لقد خلقتِ ببراعتكِ بُكاءً من نوعٍ آخر.

كانت نجوم السماء تميلُ للمغيب و الأرضُ من حوله أشبهُ بالصحراء، كان جالساً على التراب، يرتدي زيَّاً عسكرياً، أخرجَ من جيبه صورةً لميرا و أخذ ينظرُ إليها، لم يعد يمتلك الوقت للتفكير فيها كالسابق، كان وقتهُ مليئاً بالتدريبات و الأنشطة القتالية، لكنهُ كان يسرقُ اللحظات من دقائق راحته و يتأملُ فيها صورتها.

كانت ميرا ترقصُ في أحد البارات برفقة الياس، قربها منهُ و همس في أذنها(ألن تذهبي معي إلى المنزل)، أشارت برأسها علامة الرفض بينما هي تبتسمُ بعفوية، تركها ترقصُ لوحدها و ذهب بغضب ليجلس على المقعد، تبعتهُ لتفهم منهُ سبب ما فعل فتحدث إليها بنبرة حادة(لا بد أنكِ لم تتخلصي من العقد النفسية لذاك الشاب المعقد، أظنُ بأنكِ أصبحتِ نسخةً عنه).

خدشت كلماتهُ قلبها، ذكرها بأن زين قد ذهب، لم يعد قريباً، انقطعت أخبارهُ عنها و ربما ستبقى مقطوعةً للأبد.

تناولت حقيبتها اليدوية و التفتت لتغادر فأمسكها من يدها و قربها منه (لا تحزني، كنتُ أرغبُ في إمضاء بعض الوقت معك، بعيداً عن الضجيج، يزعجني أنكِ لا تثقين بي).

كانت نيللي واقفةً عند باب البار تشاهدُ ما يحدُث باستياء، رآها الياس هي تغادر غاضبة ليتبعها دون أن تعلم ميرا بسبب انصرافه المفاجئ.

كانت تشغّلُ سيارتها، ركض الياس نحوها ليقدم لها تبرير لما رأتهُ لكنها غادرت دون أن تستمع.

****

استلقت حلا على سريرها للنوم و هي تفكرُ بما فعلهُ مراد و تتذكرُ كلماتهُ بعد أن قبلها (آسف، لم أقصد، لا أدري لما فعلتُ هذا)، كانت لوحدها في المنزل بعد أن ذهب في زيارة لصديق.

دخلت نيللي وهي تشتعلُ غضباً، أخذت تضربُ الجرات الفخارية التي تزينُ الصالة أرضاً ثم دخلت إلى المطبخ و قامت بإلقاء الطعام الذي طبختهُ حلا أرضاً، ركضت حلا من غرفتها نحو المطبخ(سيدتي أرجوكِ اهدأي) أمسكت نيللي بالمقص الموضوع على الطاولة و أمسكت بحلا من شعرها أجبرتها على الجلوس أرضاً (اجلسي ايتها الحثالة، لا تتحركي) كانت حلا ترتجف ظناً منها بأن نيللي قد علمت بما حدث بينها و بين مراد و تريد قتلها، غرست نيللي صابعها في عنق حلا و بدأت تقصُ لها شعرها رُغماً عنها (أنا سيدتك، لا يعجبني شعرك، إني أكرهه، يوترني طوله) استسلمت حلا لها و دموعها تكتسح خديها، لم تتركها نيللي حتى أصبح شعرها إلى حد أذنيها ثم ركلتها بقدمها (قومي بتنظيف المكان).

عانقت حلا الأرض و هي تضمُ خصلات شعرها المقصوصة بيدها النازفة التي جرحت أثناء محاولة إبعاد المقص عن شعرها و تبكي، أمسكت بها نيللي مجدداً لتجبرها على النهوض و تنظيف الصالة لكنها لم تستجب فوضعت قدمها على رأسها (ابقِ هكذا مكانك دوماً في الأسفل، تحت قدمي).

حان موعد عودة مراد من العمل، دخل إلى المنزل مشتاقاً لرؤية حلا لكنه صُدم من منظر الصالة، توجه مسرعاً نحو المطبخ بعد أن سمع أنين بكاءها هناك، نهض بها ملهوفاً و هو ينظرُ إلى شعرها و يدها النازفة و يتساءل عن ما حدث، تكلمت بعد إصراره بصوت مخنوق (السيدة نيللي قصت شعري)، حضنها بحنية و هو يحاولُ أن يهدأ من لوعها ثُمَّ حملها إلى غرفتها و قام بتضميد الجرح.

خرج يبحثُ عن نيللي و هو ينوي الشر لها لكنها لم تكن في المنزل، اتصل لتجيبه بكل برود (لا أريدها في المنزل إنها مُقرفة وجدتُ شعرةً في الطعام، إن كنت تريد أن تحضر خادمة، أحضر خادمة تعملُ في النهار ثم ترحل، لا أريدُ من فتاة متسولة أن تقيم معي).

كانت حرارةُ جسدها ترتفعُ حتى لم تعُد تقوى على البكاء، دخل مراد إليها مجدداً، شعر بأنهُ خائفٌ عليها كما لم يخف على أحد من قبل، أخذ يضعُ لها كمادات الماء البارد و هي تهذي بكلمات عن والديها.

شعر بأن ألمها يؤلمه، فكر في أن يجعلها تغادر المنزل عندما يتحسنُ حالُها، لم يكن ينوي أن يعيدها إلى منزل عمها، كان يريدُ أن يستأجر لها منزل تقيمُ فيه و هي مرتاحة دون أن يعكر صفوها أحد.

حلَّ الصباحُ، فتحت حلا عينيها لترَ مراد نائمٌ على مقعد مجاور للسرير، بدا لها بأنهُ قد بقي بقربها طوال الليل للاهتمام بها، وضعت يدها على شعرها القصير بحسرة ثم قامت بإيقاظه بلطف ليصعد إلى غرفتهِ و ينام بشكل صحيح، فتح مراد عينيه و تحدث بصوت ناعس (هل أنتِ بخير!! كيف تشعرين).

****

إنهُ مساء الخميس اليوم المنتظر في حياة سالي، مَن يدري ربما يكون هذا اليوم هو لعنةُ أيامها القادمة، أخذت تحضرُ ضيافة لاستقبال كرم و عائلته بينما ترمقها سهى بنظراتٍ غيورة و تحسدها على فرحتها اليتيمة.

اشتد الصراع بين كرم و والديه و أصرا على رفضهما للقدوم معه، هددتُ والدتهُ بشكل حازم بأنها ستغضبُ عليه لو غادر المنزل، جلس في غرفته متردداً لا يستطيع تحديد ما عليه فعله، تخيل ما سيحدث لسالي لو أنه تخلى عنها، كيف له أن يؤذي الفتاة التي آمنت به و وضعت حياتها بين يديه، لن يتردد شقيقها في قتلها إن اكتشف بأنها قد تزوجت منه سراً، خرج من المنزل مسرعاً وصعد سيارته، قادها بشكل جنوني في طريقه لمنزل سالي ليوفي بوعده بأنه لن يتخلى عنها مهما اشتدت الظروف.

قامت سالي بالاتصال بكرم لتعلم كم من الوقت سيستغرقون للوصول، لكن الموبايل كان يرنُ لوحدهِ في غرفته بعد أن نسيه هناك.

****

لم تعُد نيللي إلى المنزل بعد، كان على مراد المغادرة لعقد اجتماع يخصُ عملهُ، قام بإعطاء أحد جوالاته القديمة لحلا و طلب منها أن تبلغهُ فيما لو عادت نيللي و قامت بإزعاجها.

طُرِقَ الباب ففتحت حلا و نبضات قلبها متسارعة خوفاً من نيللي بعد ما فعلتهُ معها في الليلة الماضية، لكنها شاهدت رجلاً بديناً ضخم الهيئة، دخل الرجلُ بثقة دون أن تدعوه للدخول، جلس و هو يرمقُها بنظرات خبيثة، أمسك بيدها بعد أن علم بأنها لوحدها في المنزل (ما رأيك أن نمضي الوقت معاً و ستنالين المبلغ الذي تريدين)، أفلتت منهُ و توجهت إلى المطبخ بحجة إعداد القهوة، أخرجت الموبايل الذي معها و أرسلت رسالة لمراد و هي ترتجف (جاء رجلٌ لا أعرفهُ إلى المنزل، إنهُ يُخيفني).

كان مراد قد أوشك على بدء الاجتماع سمع رنين الرسالة فقرأها، اتصلَ بحلا بقلق، ففتحتُ لهُ الخط، لكنهُ لم يتمكن من سماع إلا صوتها و هي تدافعُ عن نفسها(ابتعد عني، ابتعد عني أرجوك، اتركني، اتركني)، ثُمَّ سقط الموبايل من يدها بعد أن فشلت في الدفاع عن نفسها و انتهت المكالمة.

اعتذر مراد عن الاجتماع و ركض خارج الشركة، صعد سيارتهُ و قادها بأقصى سرعةٍ يمكنهُ القيادة بها، و عند أحد المنعطفات، اصطدمت سيارتهُ بعنف بسيارة كرم لتنقلب كلٌّ منهما في جهة.

****

تأخر قدوم كرم إلى منزل سالي، اتصلت به مراراً و تكراراً و أرسلت الرسائل لكن دون أي إجابة، كان شقيقها ينظرُ نحوها باستياء أما سُهى كانت تأكلُ المكسرات و هي مستمتعة بما يحدُث، خرج ياسر عن صمته(إن كان هذا الشاب كاذب و لم يأتِ ستتزوجين بالرغم عنكِ من مازن، هل فهمتِ؟).

تحدثت سُهى بسخرية: هل تظنين أن بنات الطبقة المخملية سيتركونه للزواج من فتاة بهذه الحال، كم أنتِ ساذجة يا فتاة.

دخلت فرح إلى غرفة كرم لتجد موبايله منسيٌ على السرير، استلقت و بدأت تفتشُ فيه فقرأت رسائل سالي (لماذا لا تجيب؟، أين أنت؟؟، شقيقي يهددُ بتزويجي من صديقه إن لم تأتِ، أرجوك لا تخذلني).

ثم فتحت تطبيق المسنجر لترى صور قد أرسلتهم صفاء لها و لكرم و هما متقاربين كالعشاق كي تذكرهُ باللحظات الممتعة التي قضياها سوياً، نظرت بمكر إلى الصور ثُمَّ قامت بإرسالهم لحساب سالي على المسنجر و كتبت (هذه هي الفتاة التي أحبها، هل ظننتِ حقاً بأننا سنسمر، تزوجي من صديق شقيقك).

كاد الموبايل أن يسقط من يد سالي عندما رأت الصور، التفتت إلى شقيقها و سهى، تحدثت كاذبة (تعرضت سيارتهم لحادث سير، لن يتمكنوا من المجيئ اليوم).

بدأ شقيقها بالشتائم و أخذت سهى تسخرُ منها متهمةً كرم بخداعها بينما دخلت إلى غرفتها و بكت خيبتها بحرقة ، ثُمَّ ردت برسالة متوسلة(كرم ما هذا!!!، من هذه الفتاة؟؟، ما الذي تفعلهُ، إن كنت لا تريدُ لعلاقتنا الاستمرار لماذا أقنعتني بالزواج سراً، أنا في مأزق ، أرجوك قُل بأنك تمازحني).

- هل الذنب ذنبي إن كنتِ عديمة الأخلاق، لا أحد في عائلتي يريدُكِ، لمَ سأبقى معك، إنكِ أقل شأناً من أي فتاة أعرفها.

أعادت قراءة ما أرسلهُ عدة مرات غير مصدقة لما يبدرُ منه، حاولت الاتصال بهِ لتحدثهُ مكالمة صوتية لكنهُ لم يجب ثُمَّ أصبح خطهُ مُقفلاً، لم تستطع أن تخفي خوفها ، كانت تعتصر يديها ببعضهما ، تستنشق الهواء بعمق و كأنها تستنشقه لأخر مرة ، لقد خذلها بعد أن وضعت كل إيمانها في الحب بين يديه ، ماذا لو علم شقيقها!!!! ، هزّت رأسها لعل تلك الأفكار تطيرُ بعيداً و تمتمت (لن يحدث هذا ، لن يحدث هذا).

****

ترك الرجلُ حلا ملقاة على الأرض في أحد الغرف و هددها قبل خروجه (لدي صورٌ تذكاريةٌ لهذا القوام الجميل، إياكِ أن تنطقي بحرف عن ما حدث و إلا سأفضحكِ).

خرج و هو يزررُ سترتهُ ليتفاجئ بنيللي أمامه(سليمان!!! ماذا تفعلُ في الداخل).

ارتبك و هو يجيب (أغوتني تلك الفتاةُ الحسناء، راودني جمالها عن نفسي).

-يا أخي ماذا فعلت!!، ماذا إن علمَ مُراد.

-لا تقلقي لن تجرُأ على إخبار أحد لدي صورٌ تخيفُها.

اطمئن قلبُ نيللي بعد أن أكد لها بأن حلا لن تجرُأ على الحديث عن الأمر، لم يكن ما فعلهُ شقيقها يثيرُ شفقتها، المهم بأن لا يعلم مراد، فهي تنظرُ إلى حلا بأنها منبوذة من الجميع، يحقُ لأي شخص

أن ينتهك حقوقها و يسلبها ما يريد، تؤمن بأن الفتيات أمثالها وجب قتلهن منذُ لطفولة كي لا يزعجن بحاجتهم أبناء الطبقة الغنية، و أن الفضل في النفس الذي تأخذهُ حلا يعودُ لموافقتها على أن تكون خادمة في منزلها كما أنها تملكُ حق التصرف فيها كما تشاء.

دخلت إلى الغرفة الموجودة فيها حلا بعد مغادرة سليمان، و قبل أن تبدأ بكلامها رنَّ هاتفها لتجيب (نعم، أعرفهُ أنا زوجتهُ، ماذا حدث لهُ لم أفهم؟، أيُ مشفى).

خرجت نيللي من المنزل، بينما نهضت حلا من مكانها بصعوبة و مشت بخطوات بطيئة بينما تمسحُ دموعها، توجهت إلى المطبخ ، انتشلت الموبايل من حيثُ سقط و اتصلت بمراد أجابت أحدُ الممرضات(السيد مراد تعرض لحادث سير عنيف، وضعهُ غير مُبشر).

كان بإمكانها أن تصبر على ألمها و تتجاوزُ الوحشية التي عوملت بها من نيللي و شقيقها، لكن كيف ستصبرُ على ما حدث مع مراد ماذا سيحدث لها لو أصابه مكروه، شعرت بأنهُ أهمُ منها لديها، فكرت في ألمهِ و هي تضعُ يدها فوق قلبها الذي ينتفضُ من الخوف عليه، تراهُ موجوعٌ الآن، ما الذي يشعرُ بهِ، سأموتُ إن فقدته، سأموت، أغمي عليها و سقطت أرضاً.

****

أغوص في قاع من الظلام كلما رفعت رأسي لأعوم ، لأختلس النظر إلى أي ضوء بعيد أرى ما فعلتُ يُمسكني من ثوبي الذي تلّون بلون أيامي ثم يدفعني بقوة نحو العمق فتظهر فقاعات ندمي على السطح ، لو أني كنتُ أقوى لو أني كنتُ أصلب لما غرقت في هذه البحور السوداء ، ليتني كُنتُ عقلانية ، الآن أرثي ثقتي ، أرثي قلبي و عمري الرماديّ، أغمض عيني و آخذ نفساً عميقاً فيحرقني الهواء كما لو أني أبتلع بركاناً.

مضى يومان، لم يعد كرم إلى المنزل و لم يعلم أحدٌ من عائلتهِ بما حدث معه، تسلل القلقُ إلى قلوبهم، اتصلوا بجميع أصدقاءه دون فائدة، ثُمَّ كلف والدهُ بعض الرجال في السؤال عنه في المستشفيات و مراكز الشرطة، ليعلموا لاحقاً بأنهُ في أحد المستشفيات و وضعهُ حرج، ذهب والداه للاطمئنان إلى حاله بينما بقيت شقيقته فرح في منزل.

أصاب اليأسُ قلب سالي، قررت أن تحاول للمرة الأخيرة قبل أن تستسلم لواقعها، اتجهت إلى منزل كرم، وقفت أمام الباب ذليلةً ثُمَّ طرقته بتردد، فتحت فرح الباب، فنطقت بكلمات مبحوحة (أنا زميلةُ كرم في الجامعة، هل بإمكاني أن ألقاه من فضلك).

-أنتِ سالي صحيح؟؟.

-نعم.

-أخبرني كرم بشأنك، انتظري قليلاً و سأعود.

تركتها واقفةً على الباب دون أن تدعوها للدخول، ثُمَّ عادت و هي تحملُ مبلغاً من المال، رمت الأوراق المالية على الأرض بشكل مبعثر (هذا المال أخبرني كرم أن أعطيهِ إياكِ لتصلحي ما أفسدتهُ أخلاقكِ النتنة و تتزوجي من الرجل الذي يناسبكِ).

أغلقت فرح الباب في وجهها، ، بينما تمالكت سالي نفسها أمام صدمتها بما يحدث، وانحنت لجمعُ المال مستسلمة لكونها ستصبحُ زوجة مازن.

****

جهزت حلا غرفة في الطابق الأرضي ليقيم فيها مراد بأمرٍ من نيللي، وقفت تنظرُ عبر النافذة منتظرةً عودته من المشفى و نبضات قلبها تتراقصُ كتغريدِ عصفورٍ عاشق، فتحت الباب و هي تخفي لهفتها و شوقها أمام نيللي، لكن الصدمة كانت حين رأت بأن مراد أصبح ضريراً و زوجتهُ من ترشدهُ إلى الطريق، كانت طباعهُ قد أصبحت حادة على غير عادته، ما إن وضعتهُ في الغرفة على السرير حتى صرخَ طالباً البقاء لوحده.

اتجهت نيللي نحو غرفتها وارتدت ثياباً مناسبةً للاحتفال، ثم دخلت إلى غرفة حلا و أخبرتها بأنها ستبيت في الخارج موصيةً إياها بأن تخبر مراد بأنها نائمة و أن تسقيه المرخي العصبي لينام في حال إلحاحه على مجيئها.

دخلت حلا إلى غرفة مراد بعد مغادرة نيللي و جلست بجواره (بأمكانك أن تطردني و توبخني، بإمكانك أن تفعل كل ما تريده، اضربني إن شئت، ما عاد شيئ يحزنني، سأبقى بجوارك هُنا، لن أتركك وحيداً وسط هذا السواد، لا يمكنني أن أبصر النور و أنت تعيشُ في الظلام، صحيحٌ بأني أرى لكني ضريرة الآن).

وضع يدهُ فوق يدها (أعلمُ بأني أصبحتُ لا أطاق، إن عجزي يقتلني، ذاكرتي مشوشة لا أستطيعُ تذكر تفاصيل ما حدث، أشعرُ بأن عقلي غير متزن أحياناً، لكن ما أدركهُ جيداً، أني كنتُ أراكِ، أثناء الحادث في اللحظة الأولى التي أغمضتُ فيها عيني رأيتكِ تبتسمين كما تفعلين في العادة عندما أراكِ، أستطيع تذكر ابتسامتكِ جيداً، مددتِ يديكِ لي لأنهض لكني لم أستطع، أخبرني الأطباء بأن قلبي توقف ثُمَّ عاد للعمل، ربما متُ فعلاً، شعرتُ بأني أسقطُ من ارتفاعٍ شاهق نحو أرضٍ سوداء، لكني رأيتكِ أيضاً كان لك أجنحةٌ كما الملائكة، أمسكتِ بي مانعةً ارتطامي بالأرض).

استجمعت جرأتها و حضنتهُ بحنية (إن كنتَ أنت لا تطاق فلا يوجد في هذا الكون شخصٌ يُطاق، أراك لطيفٌ في جميع حالاتك).

أعدت لهُ كوباً من عصير البرتقال، جلست بجواره و جعلتهُ يشربُ بينما تمسكُ الكوب (تؤلمكَ قدمك أليس كذلك!!، عندما كنتُ صغيرة وقعتُ بينما كنتُ أركض وقمت بلويها، كانت والدتي تقوم بتدليكها لي كل ليلة بالماء الساخن ثُمَّ تلفها بالمشد، ثم أصبح الألم خفيفاً).

كان يفعلُ ما تطلبهُ مطيعاً لها، أحضرت وعاءاً كبيراً مليئاً بالماء الساخن و جعلتهُ يضعُ قدمهُ المتضررة فيه لتدلكها، أمسكها من زنديها و جعلها تنهضُ بلهفة، شعر بأنهُ يهينها إن جعلها تفعلُ هذا (انهضي، لا أريدكِ أن تفعلي هذا)

-الأمر خارجٌ عن إرادتك، أنت الآن حلا و أنا والدتُك، سأساعدك في أن تشفى حتى لو لم آلمك هذا، الطفلُ يفعلُ كما يمليه عليه الكبار.

تمكنت من جعله يضحك رغم حاله السيء، نظرت إليه بإخلاص و كأنها تأخذُ صبرها منه.

****

ذاك الضعفُ في عينيكِ أبكاني، كأني من تألمت.

لم يستعد كرم وعيه منذ الحادث، دخل في غيبوبة لم يدر الأطباء متى ستنتهي، في الوقت الذي كانت فيه سالي جالسة بجوار مازن في حفل زفاف بسيط ظناً منها بأن كرم تخلى عنها، جميعُ من حولها كانوا فرحين إلا هي كأنها في عزاء، لم تتوقف عن لوم نفسها للحظة، لطالما شعرت بأنه يُحبها بصدق ألهذه الدرجة كانت عمياء القلب، نظرت نحو مازن بحسرة، ها قد حدث ما كانت تخشاه ثم التفتت نحو الحضور لترى سهى تنظرُ إليهما و كأنها قد كسبت المعركة في جعلها تتزوج من هذا الرجل الذي لا تريده.

كان صوت سالي يتردُ في عقل كرم(أنا خائفة، لا تخذلني، لا تخذلني، أنا خائفة...)، فتح كرم عينيه كأنهُ رأى كابوساً، نظر حولهُ ليجد نفسهُ على سريرٍ في المشفى و العديد من الأجهزة موصولةٌ إلى جسده، بقي لدقائق يسترجعُ ما جرى ، استجمع قوته، أبعد كل شيئ عن جسده و نهض، ما إن وصل إلى الباب حتى اقترب منه الأطباء و الممرضون ليعيدوه إلى مكانه و خلفهم والدتهُ تراقبُ بجزع، كان يصرُخ (منذُ متى و أنا هُنا، أعطوني ثيابي، علي الذهاب لخطبتها، ابتعدوا عني، ابتعدوا، سيقتلها، سيقتلها....)، قام أحدهم بوخزه بإبرة مهدئة و أعادوه ليستلقي على السرير.

****

كانت تشعرُ بأن حياتها من دونه خاوية كأرض جرداء، لم يُغطِ شيئ مكان غيابهُ، ارتدت الثياب التي تريدها و تصرفت كما تشاء لكن ماذا بعد!!!، لقد رحل طيفُها، غاب قمرُ حياتها و الشاب الذي كان يُضفي ألوان الفرح على أيامها، شعرت بأنها موهومة بمن حولها، صديقاتها اللتن كنَّ يُحرضنها ضدهُ بسبب تعلقه بها و غيرته الزائدة عليها لم تعد ترى أي منهن، التفتت كل واحدة فيهن إلى حياتها الخاصة و وجدت شريكاً فضلت رضاه على الجميع، حتى الياس الذي كان يُصورُ لها الحياة مع شابٍ متحرر كالجنة، لم يكن كما كان يتظاهر، لقد منعَ شقيقتهُ من الذهاب لحفل عيد ميلاد صديقتها رغم توسلها لهُ، اكتشفت أنهُ ليس كما يدعي، و كأن الناس من حولها مجردُ آلات تنطقُ بكلماتٍ لا يعنونها، و كأنها طائرٌ قد حنَّ لقفصه بعد أن وجد حياتهُ خارجهُ باهتة، جلست على سريرها و هي تنظرُ إلى صورها مع زين على اللابتوب، تسترجعُ الذكريات الجميلة و

يلامسُ قلبها صدقُ المشاعر في كل صورة، قررت بأنه بمجرد أن يحاول التواصل معها مجدداً ستسعى لإعادة ما كان بينهما.
لم يعد الياس يهتم لأمرها كما في السابق، ماتت مشاعرُ الفضول نحو التعرف عليها أكثر، استطاع أن يؤثر عليها و يجعلها تبتعدُ عن الشاب الذي جمعتها به علاقة حب استمرت لسنين و كان هذا إنجازاً كفيلاً ليفخر به أمام اصدقاءه الشُبان، و أكثر ما يدفعهُ للتهرب منها هو رفضها المتكرر في أن ترافقهُ إلى منزله، فما حاجته لفتاة يريدُ استغلالها في مكان عام.

****

جاءت والدة مراد لزيارته من لبنان، جلست في جواره و أخبرتهُ بأنها قد عرضت تقاريرهُ الطبية على طبيب هناك و أبلغها بأن الأمل موجود في أن يستعيد نظره، و أنها قد حددت لهُ موعداً للعملية الأولى و أنه إن لم يعود لهُ نظرهُ بعدها، ستتبعها عدة عمليات، كانت تداعبُ شعره بأصابعها كطفلٍ صغير، دخلت حلا و هي تحملُ الضيافة، رمقتها والدتهُ من الأسفل للأعلى (ما هذه الخادمة إنها صغيرة، لا شك في أنها غير بارعة بفعل شيء، كان عليك إحضار امرأة خبيرة في أعمال المنزل) بلطف طلبَ من حلا المغادرة و أخذ يحدثُ والدتهُ عن رغبته في الانفصال عن نيللي، لكنها رفضت رفضاً قاطعاً، لأن انفصالهما سيوترُ العلاقة بين العائلتين مما يعني فشل المشروع المشترك بينهما و الخسارة المادية، و أضافت بأن المشاكل و عدم التفاهم هو أمرٌ طبيعي في بداية الزواج، فاجئها بقولهُ (لا أحبُها، لا أشعرُ بشيء نحوها).

- منذُ متى و أنت تهتمُ لهذه الأمور، ثُمَّ إن زواجكما ناتجٌ عن إعجاب متبادل بينكما لم يجبركما أحد.

بعد أن غادرت والدتهُ، دخلت نيللي إلى الغرفة بغضب بينما كانت حلا تطعمهُ

نيللي: تشكوني لوالدتك أيها الصبي، ألا يكفي بأني ما زلتُ معك إلى الآن رغم أنك أعمى.

دفع صحن الحساء الذي تطعمهُ منهُ حلا: إخرسي، و اغربي من هُنا، لا أريدُ أحداً.

نيللي: و إن لم أخرس و لم أغرب ما الذي ستفعلهُ آه!!، هل ستنهضُ و أنت تتحسسُ الطريق كالمعتوه و تأتي لضربي.

نهض بسرعة متجهاً نحوها لكنهُ تعثر بطرف السرير و سقط أرضاً غصت الدموع في حنجرته، أراد أن يبكي عجزه لكن كبرياءه قام بردعه، خرجت نيللي مغلقة الباب و هي تسخرُ منهُ بينما اقتربت حلا لتساعدهُ لكنهُ دفعها بقوة فسمع صوت ارتطامها و تحطم المرآة من خلفها، اقترب نحوها بلهفة وهو يتحسس الطريق (حلا، حلا، هل أنتِ بخير، أجيبيني أرجوكِ).

وضعت يدها على كتفها وهي تتألم فبللت الدماءُ رؤوس أصابعها(لا بأس أنا بخير، لم يحدث شيء).

شعر بأن صوتها ليس على طبيعته، أخذ يعتذرُ منها، مكرراً سؤالها عن حالها، ساعدتهُ على النهوض و الاستلقاء على السرير و هي تتحدثُ كأن شيئاً لم يحدُث، لقد جرحت كلمات نيللي قلبها قبل أن تجرح قلبه، رأتهُ مهزوماً و ضعيفاً كما لم ترهُ من قبل.

كان يشعرُ بأن أشياء غريبة تحدثُ في المنزل، أحياناً يسمعُ صوت الباب يُقفل من الخارج في منتصف الليل و على الرغم من أن حلا مقيمة معهُ في غرفته لتلبية احتياجاته لم تتحدث بشأن سماعها لأمر كهذا، كانت نيللي تنادي حلا في أمرٍ لا يعلمهُ وعندما تعود يشعرُ بأنها غير طبيعية يسمعُ صوتها تبكي في الحمامات بينما تفتحُ صنبور الماء على آخره كي لا يشعر، يتحسسُ وجهها فيلاحظُ أن الدموع رطبة على خديها على الرغم من أن صوتها عادياً، يسألها عن السبب فتخبرهُ بأنها حساسية، حاول جاهداً أن يحصل منها على تفسير منطقي لما يحدث دون فائدة كانت تتعحب لما يخبرها به و تنكره، في النهاية بدأ يشكُ في نفسه، و في أن ما يلاحظهُ تهيؤآت سببها أزمة نفسية تعرض لها بعد الحادث دون أن ينتبه لهذا أحد.

****

تحسن حالُ كرم، عاد إلى المنزل برفقة عائلته، و اتجه إلى غرفتهِ يبحثُ عن جواله على الفور، جلس على السرير و قام بالاتصال بسالي لكنهُ وجد الرقم مغلق و أنها ليست نشطة على مواقع التواصل الاجتماعي منذُ فترة، آخر ما نشرته على حسابها على الفيس بوك (كم تمنيت!!، إننا الأحق لأنفسنا بالاعتذار، لم يخنا أحد نحن من خنا أنفسنا حين أحببناهم، إننا ضحايانا).

شعرَ بأن سيئاً قد حدث، أخذ مفاتيح سيارة والده دون أن يتمكن أحد من منعه بسبب إصراره، قادها متوجهاً إلى بداية الحي العشوائي الذي تقيمُ فيه حيثُ كان يوصلها عادةً، مشى بين البيوت الغير منتظمة و أخذ يسأل عن عنوان منزل شقيقها، حتى أرشدهُ أحدهُم، طرق الباب ففتحت لهُ سُهى و هي تعلكُ العلكة و تشكلُ فيها بالوناً صغيراً، سألها عن ياسر فأخبرتهُ أن ياسر مناوبٌ في المعمل الليلة، و لما سألها عن سالي أجابت بسخرية و هي تضحك: هذا أنت!!!، هههه تأخرت، انتظرناك و لم تأتِ فتزوجت، حظ أوفر يا جميل.

-تزوجت!!، لماذا؟، كيف، إنكِ تمزحين صحيح، ألم تعلم بأني تعرضت لحادث.

-لمَ سأمزح معك أيها الوسيم، الفتاة كبرت و أصبح عليها أن تتزوج ، إلهو بعيداً من هنا.

شعر أن الهواء الذي يتنفسهُ قد أصبح بحرارة الجمر، طلب منها أن تعطيه عنوان منزل زوجها و حين رفضت واستمرت في السخرية، رمى رزمةً من المال على وجهها، فأخذت المال بفرح و أعطتهُ العنوان، عاد إلى السيارة و هو يضعُ يدهُ على مكان الإصابة في صدره.

****

أيقظت حلا مراد بهدوء بعد أن حضرت لهُ الإفطار، كان عليه أن يسافر لإجراء العملية، قامت بإطعامه ثُمَّ ساعدتهُ على تجهيز نفسه ، و بينما هي تمشطُ شعره أمسكَ بيديها و قبلّهما: أرغبُ في

الرؤية أكثر من أي وقت مضى، اشتقتُ لأن أغرق في هاتين العينين و أذوب في تفاصيل ثغرك البسام.

اقترب ليودعها لكن نيللي فتحت عليهما الباب بعد أن استعدت للسفر (هيَّا السائق ينتظر في الخارج، ألبسيه الحذاء و تعالا).

ذهبت أمامهما إلى السيارة بينما انحنت حلا لتلبسهُ الحذاء، قام بالنهوض بها و عانقها بشغف (سأشتاقُ لكِ).

****

يراودني لقائي بشقيقتك، حين شرحت لي عن النسبة و التناسب، كانت شفتاها تتحركان بفوقية، لتكونَ أنت عنصراً موجباً، و تكون حياتي سلبية، اعتبرتني بلا تعريف، يؤسفني أن يصبح الحب معادلةً رياضية، رفعتكَ كلماتها إلى السماء، و دفعتني إلى الأرض السابعة، لم يؤلمني السقوط.....لقد أحرقني صمتُك!!!

كانت سالي تعدُ الإفطار لمازن، كان كأي رجلٍ تقليدي همهُ في الحياة أن يعمل و يأكل و ينام، تناول الطعام بطريقة همجية بينما جلست تنظرُ إليه باشمئزاز منتظرةً أن ينتهي و يغادر كان عدم وجوده في المنزل يشعرها بالراحة، انشرح صدرها عندما أغلق الباب خلفه، أخرجت هاتفها النقال من حيثُ تخفيه و قامت بتشغيله، فتحت على صفحة كرم على الفيس بوك و كان آخر ما نشره (ليتني متُّ يومها) أخذت تقرأ التعليقات التي كانت تهنئه على سلامته دون أن تفهم ما الأمر، فتحت على اسمه لإرسال رسالة لتطمئن إلى حاله، لكنها سارعت إلى مشاهدة صوره مع صفاء و قراءة الكلمات الجارحة التي أرسلها في محادثتهما الأخيرة، كانت قد احتفظت بكل شيء كي تردع نفسها إذا داهمها الحنين و لا تترك في قلبها مكاناً للضعف.

قُرِعَ الباب، أخفت الموبايل خوفاً من أن يكون مازن قد نسيَ شيئاً و عاد، فتحت الباب لترى كرم أمامها، كاد أن يتوقف قلبها من الصدمة، دفعها إلى الداخل و دخل خلفها مغلقاً خلفهُ الباب (احزمي أمتعتكِ و تعالي معي).

كانت تمنعُ نفسها من التركيز في ملامحه التي تزيدُ من شوقها و تعطشها إليه، منعت عينيها من الالتقاء بعينيه(أُخرج، أتظنني رخيصة حتى تتعامل معي بهذه المزاجية).

- إنهُ القدر ليس ذنبي ،منذُ أن علمتُ بأنكِ تزوجت و أنا أموت من الداخل أريدُ أن أحيا بكِ من جديد.
- ما هو الذي ليس ذنبك!!، أن تهينني، أن تكون على علاقة بفتاة أخرى، أن تجعل شقيقتك ترمي المال على الأرض لتذلني، تظنُ أنك تستطيعُ التخلي عني متى شئت و تعيدني إليك متى شئت.

أمسكها من زنديها بقوة و جعلها تنظرُ إلى عينيه(انظري إلي، عن ماذا تتحدثين!!!، لا أفهمُ شيئاً)، قام بشق قميصه و أراها أثر الجرح العميق في صدره (أنظري هذا أثر الحادث الذي تعرضتُ لهُ

في اليوم الذي كنت قادماً فيه لخطبتكِ، كدتُ أن أموت ، ليتني مت حقاً، يا ليتني متُ و لم أراكِ زوجة لرجلٍ آخر).

أخرجت هاتفها من حيثُ تخفيه و جعلته يرى صوره مع صفاء

- كانت علاقة عابرة لم أكن أحبها.

-علاقة عابرة و أنت ترتدي السلسلة التي أهديتك إياها يوم عقدنا قرانا!، لم تخني فقط و أنا حبيبتك خنتني بعد زواجنا، لم أعد أثق بك.

-أرجوكِ أنا آسف(يمسك يدها)، تعالي معي أتعجبك هذه الحياة، إنك تستحقين أفضل من هذا.

- ألوثُ شرف عائلتي لأذهب لعائلة لا تريدني و حبيبٍ من الممكن أن يخونني مجدداً، ماذا إن خنتني!! سأقبلُ حينها بأن تجرح كرامتي دون أي رد فعل، ببساطة لأنه لا يوجد من يسندني، الجميعُ ضدي، أخذلُ الأرض كلها لأجلك و تخذلني أنت، لن أذهب معك لأي مكان، غادر من فضلك).

التفت ليغادر ، لم تعد تقوى على تصنع الصلبة أكثر من ذلك، أمسكت بيده، ارتمت بين ذراعيه و أخذت تبكي(أنا تعيسة جداً)، آلمهُ جرحه لكنهُ لم يشأ أن يبعدها، فقد كان شوقهُ لها مُضاعفاً.

****

كانت عينا مراد مضمدتين، يشبكُ أصابعهُ ببعضهم بينما يدعو بأن يعود لهُ نظرهُ، بقربهِ كلٌ من والدته و نيللي و الطبيب، الجميعُ متشوقون ليروا نتيجة العملية، اقترب الطبيب و بدأ بإزالة الضماد، فتح مراد عينيه و الجميعُ ينتظرون ما سيقولهُ، نهض مراد من مكانه و قرد ذراعيه و اخذ يضربُ كل شيء حولهُ أرضاً و هو يصرُخ (سواد، سواد، لا أرى شيئاً ، لا أرى شيئاً، لم تنجح العملية ، سواد).

اقترب منهُ الطبيب مهدئاً(لا بأس ربما سنحتاج لعدة عمليات لم ينتهِ الأمل، دعني أقوم بفحصك).

-ابتعد عني، اتركوني، أريد العودة لسوريا، أريد العودة الآن.

حلَّ المساء بدأت الأمطار بالسقوط خرجت حلا إلى الحديقة و أخذت تدورُ و هي ترفعُ وجهها للسماء و تدعو بتحسن حال مراد، توقفت في مكانها عندما سمعت صوت نيللي(إذهبي و ساعديه بدلاً من هذا الجنون، لا زال أعمى).

دخلت إلى المنزل لتجد مراد على حاله جالساً على الأريكة في الصالة منتظراً إياها أن تقوم بمساعدته، قامت بالإمساك في يدهِ و إدخالهِ إلى الغرفة و هي تخفي حزنها لأنه لم يستعد بصره، جعلتهُ يجلس على السرير و هي تواسيه (سيعود لك نظرك قريباً هذا ما أشعرُ به، إحساسي لا يخيب، لا بدَّ بأنك جائع، سأساعدك في تبديل ثيابك ثُمَّ أحضرُ لك العشاء).

رأت نيللي واقفة عند باب الغرفة المفتوح و قد ارتدت ثياباً مناسبةً للسهر، أشارت لها بالقدوم فتوجهت نحوها لتهمس لها(كالعادة إن سأل عني أخبريه بأني نائمة).

لم يسبق أن سأل مراد عن نيللي عندما كانت معهُ حلا لكن في هذه المرة و بعد أن حضرت لهُ العشاء سألها لتخبرهُ بارتباك بأنها نائمة في غرفتها.

ساعدتهُ على الاستلقاء و قامت بتغطيته جيداً بعد أن أطعمته، ثمَّ أطفأت الأنوار و لم تبقي إلا نوراً خافتاً، استلقت على الأريكة و خلدت إلى النوم.

بعد أن شعر بأنها غفت نهض من مكانه و اقترب منها و أخذ يتأملها ، كان قد استعاد نظرهُ لكنه لم يخبر أحداً، أراد أن يعرف فيما إذا كانت الأشياء الغريبة التي يشعرُ بها موجودة حقاً أم أنها مجردُ تهيؤات.

****

بعد ضغطٍ مستمرٍ من الياس وافقت ميرا أن تذهب معهُ إلى منزله ليحتفلا بعيد ميلاده بصفتها حبيبته، حاولت أن تحافظ على علاقتها بهِ ليهون عليها الوقت الممل و الأيام الرتيبة التي تمرُ عليها، ما إن دخلت معهُ إلى المنزل حتى أمسك بها و دفعها إلى الحائط و بدأ يحاول الاقتراب منها بينما تحاولُ إبعاده (ما شأنك!! ، الأمر عادي، تريدين شاباً بطباع غريبة و أنتِ شرقية)

-أرجوك، ابتعد، احترم رغبتي لا أريد أن يحدث هذا.

لم يستمع لها، كان يركزُ فيما يرغبُ في أن يفعله بينما تقاوم، أمسك بفستانها و شقّه من منطقة الصدر، سقطت على الأرض و هي تتحركُ كي لا يتحكمُ بها.

أوقفهُ صوت نيللي الذي جاء من خلفهما (ما الذي تفعله!!).

ابتعد عن ميرا و نظر إلى نيللي مصدوماً، كان يظنها أنها لا تزال في لبنان، لم يعلم بأنها جاءت إلى منزله لتفاجئه بمناسبة عيد ميلاده.

نهضت ميرا و هي ترتجف أمسكت معطفها و اتجهت نحو الباب مسرعة بينما صفعت نيللي الياس بدأ يرمي بكلمات عشوائية ليبرر ما فعل: تناولت حبة مخدرة ، لم أستطع ضبط نفسي، كنت مشوش.

-مشوش!!، تستغل كل فرصة لا أكون فيها كي تخوض علاقة مع أخرى، أم أني البنك الخاص بتمويلك و الذي عليه دوماً أن يحتمل أخطاءك.

-أنسيتي أنك متزوجة و أنك في كل يوم تكونين مع رجل غيري، وأنا أحتمل كل هذا، أمضي وقتي مع هذه الفتاة كي يهون علي غيابك، كي أنسى بأنك لست ملكي وحدي.

نظرت إليه بسخرية و هي تستخف بكلماته ثم دفعته جانباً و غادرت.

****

على هذا المقعد الوحيد

أمررُ أصابعي التي يطليها الحنين

أرى طيفكَ حاضراً!!

يملأُ مكانك

فينفجرُ بركانُ الكبرياء

و تتطايرُ حممُ الدموع

ينظرُ نحوي باستهزاء

ثُمَّ يجففُ عينيَ بمنديله

يبتسمُ منتصراً

ثُمَّ يغادرُ بلباقة

و أبقى كعادتي أنتظرُ التفاته

و هو كعادتهِ لا يلتفت.....

مشت في الشوارع و هي تشدُ معطفها حول جسدها بينما تمتزجُ الأمطار مع دموعها، مرّت من أمام البناء الذي فيه شقة زين القديمة، صعدت إليها و طرقت الباب، كانت تعلمُ أن زين غير موجود ، و أنهُ لن يفتح ، تردد صوتهُ في اذنها (ستعودين، ستعودين عندما ينتهي فضولك، لكنك لن تجدي أحداً)، استمرت في طرق الباب بقوة حتى فتحت لها شابةٌ بدت بأنها قد استيقظت لتوها من النوم، مسحت دموعها (أريدُ أن أتحدث إلى زين).

-مَن زين؟؟؟ لا بد أنكِ طرقت الباب الخطأ.

جلست في مكانها و حنت رأسها و هي تبكي بمرارة، حاولت الفتاة فهم ما بها و مساعدتها للدخول لكنها رفضت.

****

يا نجمة الصبح، تعالي، ألم يحن موعد الشروق لأحلامي، أيُها الليل العنيد أما مللت السهر.

كان يغلقُ على نفسه غرفتهُ و يقوم بتدخين سيجارة الحشيش، كان يهوي، خيطُ ثباته احترق فتزعزع كيانه المكسور، حاول أن ينسَ، أن ينسَ بأنها مع رجلٍ آخر و أن أحلامهما المشتركة نامت باكراً و لم تستيقظ حتى الآن.

كانت مستلقيةً بجوار زوجها مازن، تنظرُ عبر النافذة و تنتظرُ حلول الصباح، عازمةً على أن تطلب الانفصال.

بعد أن انتهى من تناول إفطاره، تحدثت بحزم (أريد أن ننفصل، لا أستطيع تحمل حياتي على هذا النمط، أريدُ أن أكمل دراستي، لماذا تمنعني من كل شيء، ما هذا التخلف، أشعرُ بأني ميتة و أنا حية، أشعر أني أعيش في قرن ماضي).

-ما هذه التفاهات يا امرأة!!، احترمي كلماتك، إني أقوم بتجاهل كل أخطاءك لأني أريدك منذ زمن، تأكلين و تشربين و لا تتعبين، ما الذي تريدينه أكثر.

-أريد أن أشعر أني إنسانة أن لدي هدف، لست حيواناً يأكل و ينام و يتكاثر.

-أنت فتاة وظيفتك الأساسية في هذه الحياة هي طاعة زوجك و إنجاب الأطفال، لا تتكبري.

تشاجرا وعلت أصواتهما، أخطأت و نادتهُ باسم كرم، توقف عن الكلام الذي كان يقولهُ و هزّ برأسه (كرم!!!، هاها الآن علمتُ ما الأمر)، جمدت في مكانها بينما خرج و أقفل عليها باب الغرفة، بدأت بالصراخ، ثُمَّ ذهب إلى عمله و أقفل عليها الباب الخارجي، كانت تخبئ الموبايل في جوف الوعاء الذي تضعُ فيه الأرز في المطبخ، فلم تعد تستطيعُ الوصول إليه و تشغيله.

أوقف كرم سيارتهُ في في حي مهجور قريب من مكان سكنها، اتصل على هاتفها مراراً و تكراراً لكنه وجد بأنه لا يزال مغلقاً، مشى نحو المنزل و أخذ يطرقُ الباب دون أن يفتح لهُ أحد.

****

فتحت ميرا عينيها بعد ليلة طويلة قضتها مع ذكريات زين، كان بياض عينيها أحمراً و أذاب قلبها الحنين، قررت أن تخلع كبرياءها و تعترف بخطئها، نَوَت أن تدخل لحساب شقيقة زين على الفيس بوك و تطلب منها أن تعطيها طريقة لتتواصل معه بعد أن عطّل رقمه القديم، أخذت ترتبُ ما ستقولهُ لهُ في عقلها (كُنتَ محق، أعتذرُ عن ما بدر مني، أنا مخطئة فيما كنت أظنهُ، لا، لا ، سأختصرُ هذا الاعتذار في كلمة أحبك، سيفهمُ حينها بأني أريدُ أن نعود كالسابق)، بحثت عن هاتفها بجوارها و لم تجده، نظرت إلى ساعة الحائط لتجدها الثالثة بعد الظهر، خرجت من غرفتها لتجد أفراد عائلتها جالسين و كأنهم يعقدون اجتماع، (أين هاتفي).

أجاب ميار: لقد أوقعتهُ عن طريق الخطأ و تعطل يحتاجُ إلى صيانة.

تنهدت باستياء و اتجهت لتعود لغرفتها لكن والدها أوقفها (ما رايك أن نذهب لركوب الخيل؟، سنقضي أوقاتاً ممتعة).

شعرت بأن الجميع يتصرفون معها بغرابة، أكملت طريقها بخطوات متعبة(لا أريد أنا مشغولة).

جلست على سريرها و قامت بالدخول لحساب الفيس على اللابتوب و قلبها يخفقُ مُرحباً بأول خطوة على طريق عودتها لزين، تفاجأت برسالة من حساب فتاة، دققت في الاسم لتتجد بأنها شقيقة زين.

(ربما لن يمر في تاريخ البشرية فتاة بأنانيتك، إنكِ أكثرُ شخص أكرهه على وجه الأرض، من قلبي لا أتمنى لكِ سوى الأذى و المعاناة، هل أنتِ سعيدةٌ بما حدث!!، ترك شقيقي القرية، رُبما لن تذكري من شقيقي فساقطة مثلكِ تعرفُ الكثيرُ من الشبان، زين، أتذكريه!!! ، الشاب الذي ترك

قريته و عاند عائلته ليكون بقربكِ، نقل عمله إلى دمشق و لم نعد نراه إلا في المناسبات محاولاً إرضاء غرورك في أن يهجر كل شيء لأجلك، حتى الآن لا أدري لماذا شابٌ طيبٌ مثله يقعُ في حُبِ فتاة خبيثة، لستُ في موضعٍ يسمحُ لي في الكلام أكثر، أودُ أن أخبرك بأنكِ أنت من تحملين ذنب موته، أنا و والدتي سندعو عليكِ حتى النهاية).

جمد الدم في عروقها فتحت صفحة الفتاة الشخصية لترى بأنها قد شاركت خبر استشهاد زين مُرفقاً بصورة لهُ و هو في الزي العسكري، أخذت تصرخُ باسمه و هي تخدشُ وجهها من جبينها و حتى منتصف صدرها.

****

عاد مازن إلى المنزل و هو يصطحبُ معه ياسر بعد أن قام بشكوة سالي لهُ، كانت جالسةً تُمسك معدتها من الألم، اقترب منها شقيقها و نقرها على رأسها بقوة(تريدين أن تصبحي مُطلقة، هل تظنين أنه من الممكن أن استقبلك في منزلي إن حدث الأمر، افهمي يا فتاة ستموتين هُنا، ستفعلين كُل ما يريدُهُ زوجك، أنتِ ملكهُ و يحقُ لهُ ما يشاء).

-أنا غير سعيدة في زواجي، سأنفصل عنه و لن أريك وجهي،هذه حياتي، لن أمضي عمري في هذا البؤس.

انهال عليها بالضرب فتدخل مازن و أبعدهُ عنها، كانت كلمة مطلقة معصية يعاقبُ عليها المجتمع بالنسبة للبيئة التي تعيش فيها، مُطلقة تعني نهاية الحياة و البقاء في زاوية الغرفة للأبد.

توجه ياسر للمغادرة بينما بقيت تبكي في مكانها، دخلَ إليها مازن و هو يُمسك جلباباً و نقاباً(هذا ما سترتديه من الآن وصاعداً، يبدو لي أنه علي إعادة تربيتك).

-لا أريدُك، هل تريدني أن أبقى معك بالإجبار!! .

-لم أنتظر موافقتك كل هذه المدة كي أتخلى عنك بهذه السهولة، ستعودين لرشدك، إنك لا تعين ما تفعلين.

****

كان مراد نائماً في الغرفة، فتح عينه و التفت حولهُ ليجد نفسهُ وحيداً، لحظات و دخلت حلا بهدوء كانت تظنُ بأنهُ لا يراها، كانت ترتدي ثوباً قصيراً ،مفتوح الصدر، على الرغم من أن الحزن ظاهرٌ على وجهها إلا أن صوتها و هي تتحدثُ إليه كان سيوحي لهُ بأنها في قمة حيويتها و مرحها لو لم يكن يَرَ ملامح وجهها، كانت قادرة على جمع التناقض بين صوتها و ما تشعرُ به فعلاً كان دوماً يطلب منها أن تروي له ما حدث قبل الحادث فقد كانت ذاكرته مشوشة، لكنها تكذب عليه.

اتجهت إلى الحمام المرفق مع الغرفة بينما ينظرُ هو إلى ما ترتديه مستغرباً، فتحت صنبور الماء و وضعت يدها على فمها كي لا تصدر صوتاً و أخذت تبكي بحرقة ثم خلعت الثوب الذي ترتديه بقوة و ضربته بالجدار.

تمالك نفسه كي لايذهب إليها و يسألها ما بها، أراد أن يكتشف هول ما يحدث بنفسه.

****

أيُها الحب الذي لا يُنسى يا مَن تحفرُ في ارواحنا ثُقباً تتسربُ منهُ سعادتنا، رفقاً بما لا نملكُ عليه قوة، كُن لطيفاً و أنت تقتلنا، اجعل موتنا رحيماً فما عاد لنا طاقة على التحمل.

منذُ أن علمت بأنها فقدتهُ للأبد و أن ما خسرتهُ لا يقبلُ التعويض أو التكرار، أصبحت كشبحِ إنسان يرتدي الأسود ويجلسُ هادئاً في غرفته، يتعاقبُ عليه الليل و النهار دون أن ينتبه، لم تعد تتحدثُ إلى أحد، كل فردٍ من عائلتها يدخلُ إليها، يتكلمُ بمفرده ثُمَّ يخرجُ فاشلاً.

لم يكُن هاتفها معطلاً كما أخبرها شقيقها، كانوا يعلمون بخبر استشهاد زين و لم يريدوا أن تعرف خصوصاً لأن وضعها النفسي كان متأزم في الليلة السابقة للحادثة.

اتصل رقمٌ غريبٌ ليتحدث إليها، لكن والدتها هي من أجابت واعتذرت من المتصلة مخبرة إياها بأن ميرا تمرُ بظروف صعبة و لا تقبلُ أن تحدث أحد، توسلت الوالدة الفتاة بعد أن علمت بأنها صديقتها (جوليا) في أن تأتي و تحاول إخراجها من الحزن الذي هي فيه، لكنها أخبرتها بأنها انتقلت للإقامة في لبنان و ستحاول بأقرب فرصة أن تأتي إلى سوريا لزيارتها، طال الحديثُ بينهما و جوليا تسأل تفصيلياً عن سبب ما وصلت إليه ميرا.

أصبحت جوليا تتصلُ يومياً للاطمئنان إلى حال ميرا فتدخلُ الوالدة إلى غرفة ابنتها و تخبرها لتشعرها بأن هناك من يهتمُ لأمرها أيضاً، لكن دون أن تبدي ميرا ردة فعل للأمر، في أحد الأيام خرجت ميرا عن صمتها قائلة(ليس لدي صديقة اسمها جوليا).

تفاجأت الوالدة و ظنت بأن ميرا تخونها ذاكرتها حول أصدقاءها القدامى، اصبحت والدتها أكثر إصراراً على أن تعرض ميرا على طبيب نفسي و بدأت تفكر في كيفية إقناعها بالأمر.

****

تلاشى يا ضعفي تلاشى، فالحياةُ تتغذى على الضعفاء، و بهم تقوى، و منهُم تقوى و عليهم

كنتُ أشعرُ ببذور الألم تنمو داخلي، سحقوا أحلامي بأقدامهم، كمن يسبحُ في الهواء، أنهمكُ و لا أتقدم، تعتصرُني دوامةٌ لا أُبصرُ لها نهاية، لا أدري كيفَ وصلتُ لِلُبِّها !!!، و لا متى وصلت، كأنني هُنا مُنذُ ولادتي، كأنها هي من ولدتني.

كانت سالي قد أرسلت في السابق رسالة لكرم كتبت فيها (لا تطرق الباب مرة أخرى أو تتصل ، في أول فرصة سأستطيعُ فيها الخروج من المنزل سأتكلم معك لنهرب سوياً).

ملَّ كرم من الانتظار، أيعقلُ بأن سالي لم تتمكن من الخروج كُل هذه المدة، تُرى ما الذي يحدثُ معها، مع اقتراب الغروب أوقف سيارتهُ بالقرب من منزلها، طرق الباب و هو يرتدي قبعة تابعة لأحد المنظمات الانسانية، يمسكُ بيده دفتراً و قلماً متظاهراً بأنهُ موظف تابع لهذه المنظمة.

فتح مازن الباب فبدأ كرم بالحديث: سيدي نحن منظمة انسانية نقوم حالياً بإحصاء عدد أفراد الأسر في المناطق العشوائية لتقديم المساعدات وفق عدد الأفراد.

استقبله مازن بوجه بشوش و دعاه للدخول، جلسا في الصالة و نده لسالي طالباً منها القدوم، كانت عينا كرم تترقبان قدومها، أتت و هي ترتدي جلباباً طويلاً و حجاباً، كان وجهها شاحباً كالأموات، تحدث مازن في وسط دهشة كرم بمنظر سالي(هذه سالي زوجتي، هل يمكنك تسجيل بأننا ثلاث أفراد فهي حامل).

تفاجأت سالي عند رؤيته، بقيت واقفة في مكانها خجلةً من منظرها و ثيابها البالية أما كرم غصَّت الحروف في حلقه و لم تعد كلماتهُ تجدُ هوية لتهجر فمه، داخت سالي و سقطت أرضاً فتوجه كرم نحوها خائفاً عليها، اقترب مازن منها و أخذ يبللُ وجهها في الماء (حملُها صعب أخبرنا الطبيب بذلك، هذا ما يحدثُ معها عادةً)، وعندما بدأت تستعيد وعيها تحدث كرم باستياء.

-إذا كان هناك خطرٌ عليها ألا يتوجبُ أن تتخلص من الجنين.

- خطرُ ماذا يا رجل، كل شيء بيد الله و عليها أن تنجب عاجلاً أم آجلاً، في النهاية هي أُنثى و هذا من مهامها.

أمسك كرم مازن من قميصه بقوة: تتركها تموت و تقولُ بأنهُ من مهامها، أليس في قلبك رحمة، تريد أن تقتلها.

مازن(يبعدهُ عنه): و ما شأنك أنت، تظنُ بأنك إذا قدمت لنا مساعدة لك الحق في التحكم بنا، ارحل من هُنا، لا أريدُ شيئاً منك و من منظمتك.

نظر كرم نحو سالي بحسرة، فتحت عينيها ببطء و أشارت لهُ بأن يرحل.

صعد إلى سيارتهُ بعنف، أخذ يضربُ على المقود بيديه و يضربُ رأسهُ بالمقعد، كان قلبهُ يمزقُ أوعيتهُ و هو يراها بهذه الحال، مع رجلٍ آخر يتصرفُ مع ألمها بلا مبالاة، إنها تتعذب.

توجه إلى المنزل الذي كانا يلتقيان بهِ، أخذ ينظرُ في أرجاءه حيث كان لهما ذكرى جميلة في كل ركنٍ فيه، فتح خزانتها كانت ملابسها كلها ملونة، تدلُ على حب صاحبها للحياة، أخذ يرمي بالثياب على السرير ثم استلقى و هو يعانقُ كل شيئ كانت تملكهُ.

****

كان مراد مستلقياً، جلست حلا بقربهِ و أخذت تمررُ أطراف أصابعها على ملامحه، كانت ترتجفُ من الداخل، تناقشُ في عقلها فكرة أن تخبره بما يحدث و بما يفعله شقيق نيللي معها لكن تهديدات نيللي تخيفها، ماذا إن كبر الشجار و قاموا بنشر صورها و طردها، والدةُ مراد امرأة جبارة لم تكن تعاملها بشكل لطيف، ماذا إن منعتهُ من الانفصال عن نيللي و قام الجميع بالتآمر ضدها و إقناعه بأن ما حدث كان وفقاً لرغبتها، ماذا إن عجز عن حمايتها و هو في حالته هذه، تذكرت كلماته (لستِ فقط حبيبتي، أشعرُ بأنكِ طفلتي و لدي مسؤولية الأب نحوك، إن قسى عليكِ أحد لا تنعزلي و تبكين لوحدك، أنا هُنا، سأسمعكِ دوماً و سنتجاوز كل شيء معاً).

طُرق الباب ليكون سليمان الطارق، دخل إلى الغرفة و ألقى التحية على مراد، وضع سليمان يده على خصر حلا و جعلها تجلس، كانت تبدو خائفة، بعد أن طال الحديث بين سليمان و مراد الذي مازال يتظاهر بأنه لا يرى بينما يتأمل نظرات سليمان لحلا و الذي يبدو كأنه وحش على وشك أن يلتهم فريسته، أشار سليمان لحلا بأن تخرج من الغرفة.

وقف سليمان: علي المغادرة الآن، أراك لاحقاً.

مراد: إنتظر حتى نتناول العشاء، أين حلا؟، هل خرجت؟، أريدها أن تعد العشاء، إنده لها.

سليمان: لقد خرجت، لا تقلق سأخبرها بأن تعد العشاء لك، أما أنا اعذرني علي الذهاب.

خرج سليمان و بعدها بدقائق خرج خلفه مراد بخطوات هادئة، سمع مراد صوت من أحد غرف الطابق الثاني، صعد بهدوء، كان باب الغرفة مفتوحاً، اقترب مراد و وقف الدم في عروقه حين شاهد سليمان يقيم علاقة مع حلا التي بدت مستسلمة لكل ما يحدث، أمسك قارور الويسكي الموجودة على الطاولة و ضرب سليمان بها بكل ما يملك من قوة فسقط أرضاً.

توقف بؤبؤ عيني حلا بعد أن استنتجت أن مراد رأى ما حدث، نهضت و هندمت فستانها الذي ترتديه و يداها ترتجفان، لم تستطع أن تبدأ بالشرح أمسكها مراد من يدها بقوة و أنزلها من الدرج ليرمي بها خرج المنزل(أرجوك، أرجوك، اسمعني فقط).

-كان خطأي أني وثقت بك، ألم يكفيكي المال الذي أعطيكِ إياه، لا أريد أن أراكِ مرة أخرى أيتها العاهرة.

-لقد أجبرني، أرجوك.

-كاذبة لو لم ترغبي بهذا لأخبرتني، لقد خُدعتُ بك ، إذهبي للجحيم.

دفعها خارجاً و أقفل الباب بينما وقفت خلف الباب تتوسله و هي تطرقه: أرجوك ليس لي ذنب، لا يوجد مكان أذهب إليه، أرجوك.

تركها تتحدث لوحدها بينما عاد إلى الغرفة التي سقط فيها سليمان وأخذ يلكمه و يدهس عليه بقدميه حتى تعب من ضربه.

توجه نحو الطابق السفلي، نظر نحو الباب لم يكن هناك أي صوت، بدى له أن حلا غادرت بعد أن يأست من أن يفتح لها، دخل إلى الحمام المرافق لغرفته و بدأ يغسل يديه اللتان تلوثتا بدماء سليمان و يضرب وجهه بالماء بقوة، جلس في مكانه واضعاً رأسه بين ذراعيه، لقد أتى بها إلى منزله

كعمل انساني ليحميها فألحق بها أذى مضاعف، لم تستطع صورتها مع سليمان أن تفارق ذاكرته، اتجه نحو الباب الغرفة بسرعة، كان ينوي أن يرمي بسليمان خارجاً لكنه تفاجأ بأنه الباب مقفل من الخارج.

كانت نيللي تجلس في الصالة و هي تتكء على صدر الياس، يشربان الفوتكا و يسخران من مراد.

-لماذا تقفلين الباب عليه إذا لم يكن بإمكانه رؤية شيء، أنت محظوظة بزوج كهذا.

-لا يرى لكنه يسمع، لا أريده أن يأتي للتسكع بشكل مفاجئ، فحين يقرر الخروج سنعلم بأنه قادم و إن سأل عن الباب سأخبره بأن فيه مشكلة.

-هل يصدقك بدأت أشك بأنه متخلف عقلياً.

لماذا تتعب نفسك بالتفكير المعتوهة حلا ستتدبر كل شيء (رفعت رأسها نحوه لتقبله).

أخفض رأسه ليبادلها القبلة، لكنه لم يشعر إلا بأحد قد أمسك برأسه من الخلف و شده بكل قوته لتنقلب الأريكة به و بلنيللي.

نهضا بسرعة لينصدما بمراد أمامهما.

الياس(يهمس): أليس أعمى؟؟.

اقترب من الياس و أخذ يضربه، حاول الياس أن يدافع عن نفسه لكن مراد كان أقوى منه، حاولت نيللي أن تبعده عنه بعد أن أسقطه مراد أرضاً، التفت مراد لنيللي أمسكها من شعرها و هو يضربها و ينهال عليها بالشتائم بينما تصرخ(ابتعد عني، ابتعد، كلانا نعلم أن زواجنا مصلحة، لا يحق لك.....)، اخذ الياس يزحفُ نحو الباب الخارجي ثم استجع قوته ونهض ليلوذ بالفرار.

تفاجأت نيللي بأن الياس لم يحاول الدفاع عنها و عندما انتهى مراد من ضربها، بصق عليها

(الكلب الذي معك هرب، و شقيقك القذر في الطابق الأعلى حاله يشبه حالك، معك خمس دقائق إن لم تأخذيه و تغادرا سأقتلكما).

عاد إلى الغرفة ثم خرج سريعاً و هو يمسك مسدساً وجهه نحوها وهي تحاول النهوض، نظر إلى الساعة(خمس دقائق و إلا ستموتا هنا و لا يهمني ما سيحدث بعدها).

كان مراد قد فتح باب الغرفة بعد أن نسخ المفتاح سابقاً، ركلهما خارج المنزل ثم أغلق الباب بكل قومته، شعر بالخيبة، بأن أيامه السابقة حين كان يقيم لوحده كانت أجمل و أكثر سكينة.

****

أرى حياةً أُخرى تشيرُ لي بالقدوم، تفتحُ ذراعيها لتحتضني، تغويني لأغادر جسدي إليها، لأضُمها و أبكي، لأشكو لها مرارة حياتي الأولى، أفكر أن أسيرُ فوق سورٍ مُرتفع، و أرمي بنفسي إليها، فأرى سرابها يبتسمُ بخباثة..... ويرحل!!!!.

كانت والدةُ ميرا تشربُ قهوتها الصباحية، سمعت رنين موبايل ميرا لترى بأن المتصلة هي جوليا، تحدثت إليها ثم أخبرتها بأنها ستجعلُ ميرا تحدثها، دخلت إلى غرفة ميرا و أعطتها الهاتف.

-قلت لك ليس لدي صديقة، ليس لدي أحد.

-تحدثي معها يا ابنتي أرجوكِ.

أمسكت ميرا الهاتف بعد أن تعبت من إصرار والدتها، تحدثت ميرا بصوت مبحوح(ألو... ألو).

لم تنطق جوليا بأي كلمة و أنهت المكالمة، أعطت ميرا الهاتف لوالدتها(لقد أنهت المكالمة) ،استغربت والدتها ماحدث (هل يعقل أنها قد حزنت لأنك لم ترغبين بالحديث معها في البداية) أخذت الأم تفكر في نفسها(لماذا لم تتحدث جوليا على الرغم من اهتمامها الواضح بأمر ميرا، لماذا ستحزن منها لقد أخبرتها مراراً كم حالة ميرا سيئة، يا إلهي ستجن ابنتي قريباً إن بقيت هكذا)،قاطعت ميرا افكار والدتها(اريد أن تأخذوني غداً لزيارة قبره)، عادت إلى سكونها، حضنت نفسها كأنها تريدُ التخفيف عنها و نامت.

قاسيةٌ هي الذكريات، تذهبُ بنا إلى أقصى رقع السعادة ثم تدفعنا بقوة لنسقط في الواقع، نلتفتُ حولنا لنجد بأننا وحيدون وسط الزحام، منطفئون نلعنُ عتمتنا و يُحرقُنا النور، نعيشُ غربتنا بعد أن غاب عزيزُ قلبنا.

****

فتح كرم عينيه ليتفاجأ بوجود صفاء بجواره على السرير و كلاهما نائمين فوق ثياب سالي، نظر حولهُ ليرى قوارير الخمر في كل مكان (ماذا تفعلين هُنا).

-ألا تذكر!! اتصلت بي البارحة و أخبرتني أنك محتاجٌ لي و تحبني.

اقتربت منهُ و سندت رأسها على صدره (أحبك كرم، أتمنى أن نبقى هكذا للأبد).

نظر إلى الساعة بهلع ليجدها الحادية عشر صباحاً، طلب منها الاستعداد للمغادرة دون الاكتراث لرجائها في البقاء، كان قد عزم على أن يحرر سالي من ما تعيشه.

وقف في الحي الذي فيه منزل مازن و هو يرتدي وشاح يغضي نصف وجهه و يرتدي القفازات، مشى إلى أمام باب منزل مازن نظر وعندما رأى الطريق خالٍ، ابتعد بضع خطوات للوراء ثم اندفع بكل قوته نحو الباب فخلعه، دخلَ يبحثُ عن سالي لكنهُ لم يجد أحداً، عاد أدراجهُ و هو يحدثُ نفسهُ(ماهذا الحظ البائس، أين ستكون؟)، صعد إلى سيارته و توجه نحو منزل شقيقها، طرق بقوة ففتحت له سهى وهي تأكل التفاحة التي في يدها بشراهة و تضع أحمر شفاه فاقع اللون، سألها بعصبية: (أين سالي؟)

-لحظة(تبحثُ في جيبها)، إنها ليست في جيبي، ثم ماذا تريد من امرأة متزوجة!!.

-هل هي بخير، أين هي الآن؟.

بقيت تنظرُ إليه دون أن تجيب، تذكر بأن عليه أن يعطيها المال كي تتحدث، أعطاها رزمة من المال فخبأتها داخل ثيابها و هي تمضغ التفاح و تتحدث: إنها بخير، تقيم حالياً في منزل عائلة زوجها، فحملها صعب و على أحدهم أن يعتني بها، لا تستطيع أن تبقى لوحدها في منزلها.

****

قرر مراد العودة لحياته قبل زواجه على الرغم من أنه كان يفتقد حلا كثيراً لكنه لم يعد يثق بها بعد أن أخفت كل شيء عنه، يفكر في نفسه، تراها لهذه الدرجة تستهين به و بقدرته على أن يكون حازماً، كانت تعلم بأن زوجته تخدعه و هي أقامت علاقة مع سليمان على الرغم من أنه قد أبدى لها كم يحبها، حتى لو أجبرها كما قالت، ألم يكن عليها إخباره كي يحميها.

أخذ ينقل ملابسه من الغرفة التي أقام فيها مؤخراً إلى غرفته السابقة في الطابق العلوي، نظر نحو خزانة حلا و لما برت في باله صورة حلا مع سليمان أخذ يمزق ثيابها و يرميهم أرضاً، لفت نظره الهاتف المحمول الذي كان قد أعطاها إياه، جلس على الأرض و أخذ يستطلع الرسائل و البيانات التي فيه.

فتح على المحادثة الأولى و التي كانت مع سليمان، كان فحواها تهديدات من سليمان و توسلات من حلا أن يتركها و شأنها، كان يبتزها بصور قد التقطها لها في المرة الأولى التي تهجم عليها فيها، و أبرز الرسائل كانت (هل تظنين بأن مراد يستطيع حمايتك أو إبعادك عني، إنه عاجز الآن، عائلته تملك المال و عائلتي تملك السلطة، و السلطة أقوى من المال، بوسعي أن أزج بك في السجن دون أن يعلم حتى، لذا كوني مطيعة، كوني مطيعة فذلك أفضل لك من أن تملأ هذه الصور النت و بأحسن حال سينتهي بك الأمر متسولة على رصيف أحد الشوارع).

مراد: أيها الكاذب النتن، لعنك الله.

كان مراد مصدوماً من كمية الابتزاز و الكلمات المسيئة التي كانت قد تعرضت لها حلا، كانت المحادثة الثانية في الهاتف هي محادثتها معه رأى آخر رسالة كانت قد أرسلتها له على هاتفه القديم الذي تعطل في الحادث (جاء رجلٌ لا أعرفهُ إلى المنزل، إنهُ يُخيفني)، مرَّ في باله صوتها هي عبر تصرخ عبر سماعة الهاتف (ابتعد عني، ابتعد عني أرجوك، اتركني، اتركني)، بدأت الأحداث التي حدثت في تلك الليلة تطرق باب عقله، بدأ يربط ذكرياته ببعضها ليصل عقله للتسلسل المنطقي لما مرَّ به حينها، تذكر لماذا ترك الاجتماع بشكل مفاجئ حينها و قاد سيارته بسرعة عائداً للمنزل.

****

كانت ميرا جالسةٌ في غرفتها وحيدة و بجوارها وجبة الطعام، لم تأكل منها شيء، أصبحت نحيلة، كان الحزنُ يلتهمها، دخلت والدتها إليها بسرعة (جوليا تتصل).

تحدثت والدتها إلى جوليا ثُمَّ أعطتها الهاتف، بدأت بالحديث عندما سمعت صوت ميرا، (بصراحة أنا لا أعرفكِ، اسمي جوليا لبنانية الأصل، كنتُ مقيمة في سوريا و الآن انتقلتُ إلى لبنان بسبب الأوضاع الأمنية، خطيبي يعرف زين رحمه الله).

أشارت ميرا لوالدتها بالخروج عندما سمعت باسم بزين، (لاتقولي رحمه الله، زين لم يمت إنهُ لم يمت(تبكي بحرقة) أنا انتظره، الجميع يظنون أنهُ ميّت لكنهُ لم يمت عليكم تصديقي، صدقوني أرجوكم، إنهُ حي، لن يفعل بي هذا، لن يتركني لوحدي في هذه الحياة).

أكملت جوليا (خطيبي أعطاني رسائل كان يكتبها زين قبل وفاته بأيام !!!!!).

كان صوت آهات ميرا و بكاءها مسموعاً (ما محتواها!).

جوليا: لا أستطيع أن أفتحها، لم يفتحها أحد، أريد أن أسلها لك باليد، عندما تسمح لي الفرصة سأزور سوريا و ألتقيكِ أو عليك القدوم إلى لبنان، يؤسفني أنهُ مات حزيناً.

ميرا(تبكي بمرارة): ذهبت إلى منزله، حاولت الاتصال على رقمه كثيراً، أردت أن أصلح ما هدمتهُ بغبائي، في النهاية قررت أن أحدث شقيقتهُ لكن الوقت قد فات، في كل مرة كنتُ أجهزُ كلمات الاعتذار و أفشلُ في إيجاد عنوان أرسلُ إليه، آه يا ربي آه.

أنهت جوليا المكالمة بشكل مفاجئ، حاولت ميرا أن تعيد التواصل مع الرقم لكنها لم تستطع فقد كان مغلقاً

****

بعد أيام من الوحدة، عاد مراد إلى عمله بخطوات ثابتة، بكل ثقة كأن شيئاً لم يحدث، تجاهل التفكير بحلا و بكل ما يمسها، على الرغم من أنها مظلومة لكنه بعد أن رآها مع سليمان لم تعد بنظره الفتاة البريئة التي التقى بها فقد دنسها سليمان وخضعت في النهاية له و لرغبات نيللي و قامت بحمايتهما دون أن تخبر مراد أو تعطيه بعض الثقة، عليه أن يعتاد غيابها كأنها لم تكن و يتجاهل قلبه الذي يزيد خفقانه كلما تذكرها، كان جالساً على مكتبه يراجع بعض الملفات، دخل إليه إيمن و هو يحمل القهوة، وضعها على الطاولة وقبل أن يخرج.

أيمن(مرتبك): كيف حال حلا؟، هل هي جيدة.

نظر إليه مراد نظرة مصدومة فظن أيمن أن هذه النظرة تعني بأنه لا يحق لأيمن السؤال، فتابع طريقه ليخرج: أعذرني سيدي فقط أردت الاطمئنان بأنها بارعة في خدمتكم.

مراد(يتوجه نحوه): حلا ليست في منزلي لقد انتهى عملها لدي و طلبت منها أن تعود إليكم.

أيمن: ماذا فعلت حتى طردتها!!، سأحاسبها، عندما أعود.

مراد: لقد طردتها منذ ثلاثة أيام، وأنت الآن تسألني عنها، ما معنى ما يحدث أين هي؟ أين ذهبت؟.

أيمن: إنها لا تدري كيف تذهب لأي مكان، لم يسبق لها أن خرجت لوحدها، مع من أرسلتها، هل يعقل خافت أن تعود بعد أن طردتها و بقيت في الشارع ولم تعد، إنها تخاف كثيراً لا أظنها قد تفعل شيئاً كهذا.

تذكر مراد أنه طردها بفستان النوم الرقيق الذي كانت ترتديه و من دون اي مال، لكنه ظن بأنها قد تدبرت أمرها وعادت لمنزل عمها، و الآن يخبره عمها أنها لا تعرف الطرقات ولا طريق العودة فمنذ طفولتها لم تخرج خارج الحي الذي فيه منزل عمها سوى ثلاث مرات.

نظر من النافذة إلى الرعد الذي يملأ هديره السماء، شعر بأن ناراً تتقدُ في أعماقه و أن حبه لها الذي كان يتظاهر بأنه غير موجود تحول إلى إعصارٍ يريد أن يلتهمه، تناول معطفه بسرعة و ركض خارج الشركة بينما ينظرُ الموظفون إليه باستغراب.

****

كانت سالي ترتدي جلباباً و نقاباً، أخرجت هاتفها المحمول من جوف وسادتها و أرسلت رسالة لكرم، رنَّ موبايل كرم في غرفته بينما يستحم، في حين غادرت المنزل مع زوجها.

خرج كرم من الحمام و هو يجففُ شعرهُ، أشعل سيجارته ثُمَّ أمسك الموبايل ليقرأ (إني خارجة مع مازن يريدُ أن نذهب لتثبيت زواجنا في المحكمة، إن كنت لا تزال تُحبني كُن قريباً، سأتوهُ عنهُ لآتي إليك).

-يا إلهي!! الرسالة مُرسلة من نصف ساعة.

رمى السيجارة على الأرض، ارتدى ثيابهُ بسرعة و خرج مسرعاً إلى سيارته.

وصلا إلى المحكمة، كانت سالي تنظرُ حولها بحثاً عنه، خشيت أنهُ لم يعُد يريدُها بعد أن علم بأنها حامل و رآها في أسوء حالاتها، كان يفصلُ بينهُما و بين غرفة القاضي الذي سيعقدُ القران درجٌ واحد، استغلت فرصة الازدحام و قامت بالانسحاب دون أن ينتبه مازن لذهابها، أخذت تبحثُ عن كرم بين الناس لكنها لم تجدهُ، عادت أدراجها بائسة نحو غرفة القاضي بينما أصبح مازن قريباً من الباب الخارجي و هو يبحثُ عنها.

كان كرم يقودُ بسرعة بينما تعيقُ قطرات المطر التي تهطل بغزارة على نافذة السيارة طريقه، أوقفهُ شرطي المرور في الطريق العام الذي لا يبعدُ عن المحكمة سوى حوالي مئة متر، سُمعَ صوت إطلاق رصاص قادم من جهة المحكمة، تلاه انفجار هزَّ الأركان و تطايرَ الدخانُ من المحكمة، اصبح الناس في الشوارع يركضون بشكل عشوائي بحثاً عن الأمان الضائع.

تركَ كرم الشرطي يرتجفُ من الخوف و اتجه نحو المحكمة، كان المنظرُ مهولاً، دخل ينظرُ إلى الجثث التي على الأرض خوفاً من أن تكون سالي بينهم، رأى جُثة مازن، و بجواره امرأة ترتدي جلباباً وحجاباً، اقترب منها و يده ترتعش قام بلفها نحوهُ و تنهد مطمئناً عندما رأى أنها ليست سالي، أخذ يتجول بين الضحايا و المصابين بحثاً عنها و في كل مرة يرى جسد أحدٍ يشبهُ جسدها

يموت قلبهُ و يحيا من جديد، عُلِمَ لاحقاً أن إرهابياً كان داخلٌ لتفجير المحكمة من الداخل لكن رجال الأمن قاموا بإطلاق النار عليه فاضطر لتفجير نفسه بالقرب من البوابة.

****

أبحثُ عنكِ، كالباحث عن هويته، أبحثُ عنك كما يبحثُ التائهون عن الطريق، عقلي الناضج بات طائشاً، تيمه حبُ قلبكِ الصغير.

صعد مراد إلى سيارته ليعود من مركز الشرطة بعد أن كلف أحد أصدقاءه هناك بالبحث عنها،.نظرَ من نافذة سيارته إلى الغيوم التي تنزف المطر بقوة، تذكر كلمات حلا (سيأتي وقتٌ لن أكون فيه هُنا، سأصبحُ ذكرى، ليتني أملكُ الحق في أن أكون ذكرى حتى، ربما لا أستحقُ أن أذكر فأنا دوماً على هامش حياة من أعرفُهم، إن حدث و مررتُ في بالك، أنظر إلى الغيوم القاتمة كيف تبكي بعد أن ملأها الحزن سواداً، أنا مثلها، فقط معك أكون بيضاء وناصعة تماماً).

اقترب حلول المساء، تعب من البحث في الأحياء المجاورة لمنزله، توقف للحظات ثم خطر في باله مكان لم يبحث فيه، دخل إلى حديقة المنزل بلهفة و أخذ يبحث في أرجاءها، التفت للجهة الخلفية منها، لمح شيئاً خلف أشجار السرو الأربعة المجاورة لجدار المنزل، اقترب ليجد حلا ثابتة مكانها و وجها يكاد ينغرس بجدار المنزل بينما تضربها قطرات المطر بقوة وثوبها ملتصق بجسدها بعد أن تبلل بشكل كامل، كأنها أرادت من الجدار أن يدفئها، لفها إليه ليجدها كقطعة الثلج وجلدها يكاد يتلون بالأزرق، ضمها إليه وهو يتحسس نبضها ليعلم فيما إذا كانت لا تزال حية و يهمس بصوت خائف (سامحيني....سامحيني.. أقسم أني أحبك، سامحيني).

كأن روحه عادت إليه بعد أن استطاع أن يتحسس نبضها، حملها بين ذرعيه و وضعها في سيارته.

****

كانت مستلقيةٌ على سرير في المشفى، مرر كرم يدهُ على شعرها و هو يطمئنُ إلى حال الخدوش التي تسبب بها الزجاج المتطاير في وجهها (قُتِلَ مازن و قُتِلَ طفله الذي في أحشائي، هل عليَّ أن أفرح أم أحزن!!!!).

قبّلَ يدها: عليكِ أن تكوني بخير لأجلي، لأجل أيامنا القادمة و السعادة التي تنتظرُنا.

أغمضت عينيها بارتياح، كانت هناك لمسةٌ من الحزن في قلبها على مازن لكنها لم تُرد أن تكمل حياتها معهُ، حمدت الله و طلبت منهُ المغفرة في نفس الوقت على أنانيتها.

****

انتهت ميرا من تعليق ثيابها في خزانة الغرفة الخاصة بها التي حجزتها في الفندق في لبنان، خرجت إلى الشرفة، تنهدت بعمق و هي تتأملُ امتزاج الليل بالأضواء الملونة (ليتهُ كان حيَّاً، ليتنا تزوجنا و جئنا لهُنا لقضاء شهر العسل بدلاً من أن آتي لأستلم رسالة الوداع، لقد خذلني الوقت لو أني اعترفتُ بخطأي في حقه باكراً لما حدث ما حدث)، كان شكلها قد تغير، نحلت بشكل ملحوظ و أصبح وجهها باهتاً، لم تكن تفارقُ اللون الأسود، نظرت إلى الساعة ثم خرجت متوجهةً إلى المقهى الذي اتفقت هي و جوليا على اللقاء فيه.

كأن الحزن قد استوطن في قلب ميرا للأبد، جلست في أحد المقاهي تنتظر قدوم جوليا، التي

دخلت و هي تعجُ بالنشاط و الحيوية كان شعرها المبعثر و هيئتها توحي بأنها فنانة أو عازفة في فرقة موسيقية، ألقت عليها التحية وجلستا، لم تستطع جوليا بدء أي حديث مع ميرا التي طلبت على الفور قراءة الرسائل.

أعطتها ظرفاً أبيضاً فيه (هذا أعطاني إياه خطيبي جورج وقد كان مع زين في آخر أيامه)، فتحته لتجد فيه أربع رسائل مرقمة، فتحت الرسالة رقم 1 و قرأت ما فيها.

(باعو العشرة بضحكة و مشيو بطريق النسيان، ضاعت الرفقة و بكينا، صرنا نقول وينكن يا جيران، وينكن يا صحاب الدرب، طِلو ليعود لقلبي لفرح من بعد الاحزان، يا دار لكنا نزورك، رحتي يا دار، و بقيتي ساكنة جوى و فينا حضورك.

يا صبية لاح شعرا و غطا خيوط الشمس، كبرت و صارت للحب تشتاق و يهمسوا عيونها همس، لا تخلي الجفا يطول، و تقولي يا حلوة قلبي عن هالوجع مش مسئول ، إسقي ربيعي، إسقي ربيعي قبل ما يغلبني الخريف، و يصير داخلي صحرا و وجهي بالدمع مبلول).

أنهت قراءة أول رسالة وفتحت الرسالة رقم اثنين فوجدتها فارغة و كذلك باقي الرسائل(أهذا كل شيء!)، استغربت ميرا و بدا الارتباك على وجه جوليا.

جوليا: لم أكن أعلم ما هو محتوى الظرف، أنا آسفة.

بدت الخيبة على وجه ميرا ونهضت، لم تستطع جوليا منعها من المغادرة، توجهت نحو الباب مسرعة وهي تنظر نحو الأرض مخفية وجها الذي يغص بالدموع، عند الباب اصطدمت بشابين كانا داخلين وسقط موبايل أحدهم من يده فصرخ مستاءاً: أنظري أمامك هل أنتِ عمياء؟.

لم ترفع وجهها و أكملت بينما سمعت الشاب الآخر يحدثه: لم يحدث له شيء.

لم يكن هذا الصوت غريباً عنها، التفتت، فالتفتت الشاب الذي وقع هاتفه نحوها: لم تعتذر حتى عديمة الذوق.

التفت الشاب الثاني نحوها، فلم تصدق ما رأت لقد كان "زين"، للحظات لم يميز زين بأنها ميرا فقد بدت كما لم يراها من قبل، تُرى لهذا الحد أذابها خبر موته، لم تصدق عينيها، تمنت حتى لو كان ما تراه سراباً، أن ترتمي بين أحضانه و تخبره بما حلَّ بها، بأنها افتقدته، بأن الياس خدعها، بأن

حياتها من دونه رمادية، أشاح بوجهه عنها وتابع طريقه إلى الداخل كأنها غريبة بينما بقيت واقفة في مكانها.

كان الشاب الذي يرافقه هو جورج خطيب جوليا، وقفت جوليا تشير لجورج بحاجبيها بأن خطتهما قد فشلت، نظر زين إليهما بغضب، بعد أن فقأت كل جروحه التي يستهلك من روحه حتى تلتحم: ما الذي فعلتماه! من الذي أتى بميرا إلى هنا؟.

جورج: هل رأيتها؟.

جوليا(تبرر): كنت دوماً تجعلني أتحدث لوالدتها، لها كي تطمئن إلى حالها، فأصبحنا أصدقاء ورغبت في أن تراني.

زين(لم يصدق): يالها من مصادفة، لم أرد لأحد أن يعلم بأني حي، لقد انسلخت من حياتي السابقة ولا أريد منها شيء، أريدُ فقط أن أنسى.

جورج: يا رجل كفاك، حياتك السابقة تعيش فيك، إنها داخلك، في أعماقك، تلك الفتاة تسكنك.

جوليا: لو أردت ذلك فعلاً لما بقيت على حالك إلى الآن، إنك لا تلتفت لأي فتاة، و تريد دوماً الاطمئنان على ميرا، ما الذي تريده، هل فعلاً تعلم ما تريد.

قاطع نقاشهم المحتد مدير المقهى الذي طلب منهم إعداد أنفسهم للتوجه إلى المنصة و بدء العزف و الغناء.

****

ألهذه الدرجة أصبحت قيمة الانسان بما بما يمتلكه من مال قد ابتدعهُ الناس بدلاً من قيمة الروح التي نفخها الله في البشر من روحه.

استعادت حلا وعيها فتحت عينيها، نظرت حولها لتجد نفسها في المشفى و مراد نائمٌ على الكرسي بجوارها، وهو يضع كف يدها اليمين بين يديه، سحبت يدها بلطف لتجد خاتماً ماسياً قد وضعه حول أصبعها، فتح عينيه ببطء و عندما رآها تنظر إلى الخاتم، نهض بلهفة و اقترب منها وعانقها بقوة(هل أنتِ بخير؟، سامحيني، كدتُ أموت من الخوف عليكِ).

و عندما ابتعد عنها عادت للنظر إلى المحبس الماسي بفرح و سألت مبتسمة: ما هذا؟.

أمسك يدها و قبّلها ثم ضحك: لا تعلمين!!، أيتها الشقية.

****

بقيت ميرا لساعة كاملة أمام المقهى تخشى إن دخلت أن يكون الشخص الذي رأته ليس زين و أنهُ قد هيئ لها بأنها هو لشدة شوقها إليه، خشيت أن تواجه الأمر، بقيت تمشي ذهاباً و إياباً ثم قررت الدخول، كانت خطواتها مترددة، خطوتين إلى الأمام و خطوة للخلف.

دخلت سمعت صوتاً مألوفاً يغني، رأت جوليا تعزفُ على البيانو و جورج على الكمان، كان زين يغني أغنية" خلصت خلاص" لأحمد بتشان.

(يعني انا اضحي بحياتي واسيب حياتي علشان خطرها تضيع يعني ان اهبقى اموت قصده ومشتريها وتجي هي تبِيع يبقى فاضل ايه ياقلبي علشان نقول خلصت حلاص غلطتي سوء اختيِاري وأُهتمامي بوحدده قلبها مات واللى ياما تعبت منها سبتها مبِقاش فى بنا حجات واختيار البعد عنها اكيدِ قرار مرجعش فيه انا قادر على وجع البعاد ياحراج انا هتعب يومبِن لكن مصيري ارتاح وانا الله يصر حالى على اللى انا فبِه انا مصدوم اكيد لكن مصبِري افوق لو قلبِي مات ربنا يحيه)"

جلست حول الطاولة التي على الزاوية دون أن ينتبه لوجودها تستمع لما يقوله و تحمد الله أنه بخير، أتت المغنية(دلع) التي تشاركه الغناء في العادة، صعدت على المنصة و أخذت تشاركه في الأغنية، كانت تنظرُ لعينيه بحب ثم أمسكت يده، توقفت عن الغناء و طلبت إيقاف الموسيقى، اقتربت من زين، وضعت يدها برفق على خده بينما بدت الدهشة على وجهه، نظرت للجمهور: أنا لا أشعر بالخجل من مشاعري، اليوم هو عيد ميلادي و أنوي أن يكون يوماً مميزاً بالنسبة لي و لزين، سأعترف الآن لزين أمام كل الحاضرين بما أكنه اتجاهه، زين أنا أحبك.

شعر زين بالخجل فهو لم يعتد على أمر كهذا، ارتمت دلع بين أحضانه، ونهضت إحدى الحاضرات وقامت بجعله يلفُ ذراعيه حول دلع ويبادلها العناق بينما علا تصفيق الحضور.

نهضت ميرا من مكانها لتخرج بسرعة وقد انفجرت بالبكاء، نظرت نحوهما قبل أن تغلق باب المقهى خلفها فالتقت عينيها بعيني زين.

ما إن وصلت إلى أمام المقهى حتى فقدت توازنها و أغمي عليها، التم الناس حولها و رشوا وجهها بالماء حتى فتحت عينيها، سمعت الأصوات من حولها (هل أنتِ بخير؟، أين منزلك، لأين آخذك).

بحثت بعينيها عن زين لكن لم يكن من بينهم، علمت أنه بقي مع تلك الفتاة في الداخل و لم يكترث لها.

****

بقيت ميرا تبكي حتى أشرقت شمس الصباح، حزمت أمتعتها واستعدلت للرحيل، في الوقت الذي كان فيه زين قد أمضى ليلته في منزل دلع بعد أن أسرف في شرب الكحول في الليلة الماضية، أراد أن يجرب هل بإمكانه أن يحب من جديد، فدلع فتاة جميلة الشكل و الشخصية.

نهض على لمسات دلع وهي تمرر أصابعها على وجهه، كانت تعبر له عن مدى حبها وسعادتها بوجوده، بدأت نظرات الذنب تسطو على وجهه، قبلها من جبينها وقاطعها (آسف دلع، لا أستطيع، لا أستطيع أن أكذب في مشاعري، اغفري لي، يبدو أني استهلكت كل الحب الذي في قلبي و منحته لشخص آخر).

-أريدك أن تبقى معي لم نمضي معاً سوى يوم واحد، ما أدراك أن الوقت لن يستطيع أن يبدل مافي قلبكن، امنحني فرصة.

نظر إلى عينيها نظرة طويلة، برقت الدموع في عينيه ثم نهض وبدأ يستعد للخروج وهي تنظرُ نحوه نظرة تدمج بين القوة و الخيبة.

وقفت ميرا أمام الفندق تنتظر السيارة التي سوف تأخذها إلى سوريا وهي شاردة تفكر فيما حدث(لماذا أرادت منها جوليا القدوم إذا كان زين لا يريدها، هل تلك المغنية صديقتها و أرادت أن تريها بأن زين أصبح ملكاً لفتاة أخرى)وقفت السيارة ففتحت الباب لتدخل، لكنها لم تشعر إلا بيد قد أمسكت بها من ذراعها، التفتت بذعر لترى زين يلهث و كأنه قد توقف لتوه عن الركض، التقط أنفاسه: لا تذهبي.

رغم كل الشوق الذي في قلبه، كان يتمالكُ نفسه، تعلم من الماضي أن الحب إن فاض يخنق، ، لذا وضع في قلبهِ سداً كي لا تؤذى روحه، تعلم أن شدة التعبير عن العواطف تشعرُ المعشوق بتساوي الشعور بين الحُب و العدم فتصبح كلمة أعشقك كأنها مرحباً.

ابتسمت ميرا بينما يملأ الحزن عينيها: لا أدري لماذا أتيت بي أنت وأصدقاؤك إلى هنا، ربما رغبت أن تنتقم مني، يسعدني أنك وجدت فتاة أخرى.

عانقته مودعة إياه (الحمد لله أنك بخير، وداعاً)، لم يسمح لها بأن تبتعد عنه كان يشدها إليه، عطرها، شعرها، بشرتها الناعمة، كلها تفاصيل كان يغرق فيها فلم يشأ أن يبتعد، بدأت تبكي بحرقة كأنها بدموعها تروي له كل ما قاسته في غيابه، مسح دموعها بيديه (كفي عن البكاء، لماذا تبكين؟، إنك لعنتي الجميلة، ليس بوسعي إلا أن أحبك).

ظهرت جوليا من خلفهما و أظهرت صوتاً لينتبها لوجودها.

جوليا(بجدية): لم أخبركِ سابقاً أنا خطيبة زين، كان يريدُ لقاءك لمرة واحدة قبل زواجنا و حققتُ لهُ هذه الأمنية.

نظرت ميرا إليها ثُمَّ إلى زين و كأنها تتساءل عن ما يحدُث، بقي زين صامتاً كأنهُ يؤيدُ ما تقولهُ جوليا التي ضحكت لاحقاً: هههع هههع لقد صدقتني، إني أمازحكِ، هل أوصلكما في طريقي لأي مكان، أم ترغبان في البقاء هكذا.

جلسا في أحد المطاعم، طلب زين الإفطار و أخذ يروي لها ما حدث معه: كنتُ على استعداد لفعل أي شيء لي أنسى، خسرتُ أصدقائي و عملي، خسرتُ نفسي بسبب كلماتك الجارحة، كنتُ دوماً أفكرُ فيما قلته إني مريضٌ نفسياً، معقد، لدي عقدة نقص و هذه الكلمات، لم أعد أجيدُ التعامل مع أحد، فقدتُ ثقتي حتى بأفكاري، صبرتُ كي لا نفترق، اقترفتُ أعمالاً جنونية، تحملت، لكن كل

هذا لم يكن مؤلماً كفاية، كانت الخسارة الكبرى هي خسارتكِ، التحقت بالجيش، لم أعد أتواصلُ مع أحد حتى مع أهلي، شعرتُ أنهُ علي التعافي من الماضي و بالفعل منحني القدرُ فرصة، في أحد الليالي اشتد الصراع و الاشتباك في المنطقة التي كنتُ فيها، في البداية كنتُ نائماً ظننتُ أن الأمر سيمرُ بشكل حسن كما يحدثُ في كل الليلة، لكننا اضطررنا هذه المرة للهروب حفاظاً على أرواحنا، رحت أصعدُ الجبل المجاور دون أن أعلم أين سينتهي بي الحال، وجدتُ نفسي داخل قرية لبنانية، طرقتُ أحد الأبواب ففتحت لي جوليا، كانت في زيارة لمنزل عائلتها، علمت بأن الجميع قد ظنَّ بأني ميت، يبدو أن الجندي الذي كان يشاركني الغرفة قد بدل عن طريق الخطأ بين قلادتي و قلادته، فهم قد أعطونا قلادات مسبقاً مكتوب عليها رقم مميز لكل جندي يتم تمييزه من خلاله في حال تشوهت الجُثة، قررتُ بدء حياة جديدة دون أن يعلم أحد بأني حي، رغبتُ أن أموت بالنسبة للجميع كما متُ في قلبك سابقاً، ساعدتني جوليا على تدبر أمور السكن و الالتحاق بفرقة موسيقية، في أحد الأيام شعرتُ بأن الحنين داهمني، كنتُ أريدُ فقط أن أسمع صوتك، طلبتُ منها الاتصال بك على أنها قد أخطأت بالرقم، لكن حين ردت والدتك و علمت بأن حالك سيئ، لم أستطع تجاهل الأمر، أردتُ الاطمئنان عليكِ كل يوم، و ها نحنُ الآن هُنا.

****

تفتحت الأزهار، كان الربيع يغازلُ الشجيرات في حديقة المنزل، و نسمات الهواء تداعبُ خصلات الشعر المنسدلة من أسفل التاج الماسي، بدت حلا بالفستان الأبيض كحورية هاربة من الجنة، أخذ المصور يقوم بالتقاط الصور التذكارية لها و لمراد الذي كان ينظرُ إليها كما لو أنها كنزُه، أخيراً ابتسم الحظُ لها و وضع الرحمن لمستهُ الإلهية على حياتها، ستتحولُ الخادمة المسكينة إلى سيدة قصر كبير.

صعدا إلى سيارة فخمة في طريقهما للسفر لقضاء شهر العسل، وقفت السيارة على الإشارة المرورية، كانت تجاورها أيضاً سيارة حديثة الطراز مُزينة و بداخلها عروسين، نظرت حلا نحو السيارة الأخرى و ابتسمت لسالي التي بادلتها الابتسامة.

****

أخذ حالها يتحسن ، أشرق وجهها مجدداً و بدأ قوامها يعودُ كما كان، كانا يمشيان في طريق مظلم أضواءهُ خافتة، لف ذراعهُ حول خصرها بلطف ثمَّ أمسك بيدها و قبلّها.

ميرا(بفرح): هل سمعت مسبقاً ببؤبؤ القلب؟.

زين: لا، ما هذا.

ميرا: هذا أنت، بؤبؤ قلبي.

انحنى و قام بحملها على كتفه بينما تطلبُ منهُ منه أن ينزلها و هي تضحك خوفاً من أن تسقط.

لم يعد لدى والديها مانع في علاقتها به، حمدوا ربهم بأنهُ لا يزال حيّاً و أنهم رؤوا الفرح في عيني ابنتهما من جديد.

****

يوماً ما

لن يعود النظر للخلف مؤلماً

لن يكون الحاضر ثقيلاً

سننظر بفخرٍ من القمة

لنرى مُرَّ الطريق الذي قطعناه

لكننا وصلنا أخيراً

سنرتشف القهوة الصباحية

و سنشعر بنشوة النصر في أعماقنا.

ملاحظة: أتمنى أن تصبح هذه الرواية فيلماً سنمائياً أو مسلسلاً تلفزيونياً.... باليززز.

(إلى كلمة اللا التي أكرهها موتي الآن على الورق ها قد قالوا نعم).